رجل زائد عن الحاجه



يحيى محمد زكي

الناشر
دار النهضة العربية
٣٢ ش عبد الخالق ثروت

نجيب محمد زكي

رجل زائد عن الحاجة

الناشر
دار النهضة العربية
٣٢ ش عبد الخالق ثروت

الفصل الأول

١

ـ هنا المزاد ٠٠ فرصة عظيمة ٠٠ المزاد الكبير ٠

ودخل حافظ صالة المزاد ٠ دخلها عفوا وما قصدها أصلا ٠ جذبه رنين جرس المنادى وصوته العالى ٠ لم يكن مشتريا ولا مزايدا ولا هاويا ، بل متسكعا ينشد الفرجة والمشاهدة ٠

ومر مرورا عابرا على ما بالصالة من معروضات حتى استوقفته لوحة قديمة تصور فتاة نحيلة تحتضن طفلا رضيعا ، وقد ارتسم على وجهها معالم خوف وهلع من المجهول ، يكاد فمها الصغير أن يطلق صرخة رعب تصفع الآذان ٠

أخذته روعة الصورة ودقة الفنان حتى نسى نفسه والمكان والزمان ، وأيقظته أصابع غليظة تهزه ٠ التفت الى صاحبها ، فاذا هو رجل ممتلىء الجسد والوجه باسم النظرات وسأله بلا مقدمات « أترغب فى هذه الصورة ؟»

ـ أنها رائعة حقا ٠

ـ أنصحك ألا تتورط فى شرائها فهى مزيفة ٠

أدهشه التقرير والتأكيد فسأل « ومن أدراك بذلك ؟ » ٠

ـ خبرتى ٠٠ أقصد هوايتى ، فأنا أجمع التحف المزيفة والأصلية ٠

ـ وهل للتحف المزيفة هواة ؟

ـ هواه ومحترفون ٠

ـ شىء مثير ! ٠

ـ لكن يجب أن تفرق بين المزيفة والمقلدة ٠

ـ وهل هناك فرق ؟

ـ كبير ٠٠ المزيفة متقنة خادعة تكاد تبدو كالأصيلة ٠ أما المقلدة فواضح أنها كذلك وتباع على هذا الأساس ٠

ـ لكن المزيفة يسهل اكتشافها ٠

ـ بعد أن تكون الصفقة قد أبرمت ٠

ـ عجبـا ! ! !

ـ لا تعجب ، لوحة الأميرة العاشقة ظلت بمتحف اللوفر وهى مزيفة عشرات السنين ، وكم وقف أمامها ملايين المسحورين ؟

ـ تصوروها حقيقية فكان اعجابهم بها ، ولو تبينوا زيفها لمـا تطلعوا اليها لحظة ٠

ـ اذن من الممكن أن نرضى بالزيف طالمـا لا نكتشفه ٠

ـ عندئذ تكون المأساة ٠

ـ بل قل النكتة ٠٠ وعموما أنصحك ألا تشتريها ٠

ـ ليتنى أستطيع !

ـ هذه عشر جنيهات واذهب ٠

ـ الى أين ؟

ـ أترك المزاد ٠

ـ وهل وجودى ذو قيمة بهذه الدرجة ؟

ـ كلا ٠٠٠ كل ما فى الأمر أريد شراء تلك اللوحة بلا منافسة ٠

ـ وكيف تضمن ذلك ومن البديهى أن يحضر كثيرون ممن قرأوا عن المزاد بالصحف ٠

ـ لم ينشر عنه بالصحف ٠

ـ وذلك المنادى ؟

ـ قد ينحبس صوته أو يتحطم الجرس ٠

ونظر اليه حافظ دون أن ينبس وعقب الرجل « هذه خمسة عشر جنيها ولن أدفع قرشا أكثر » ٠

ـ وفر نقودك ٠

ـ أنك مساوم ما هر تستحق عشرين جنيها ٠٠ وها هي ٠

« قلت لك لا شأن لي بنقودك ، فلم أكن أنوى الشراء أصلا » ومضى حافظ تاركا الرجل غارقا في دهشته غير مصدق ذلك الرافض لجنيهاته العشرين ٠٠ تأباها وما كان عليه الا أن يمد يده فيأخذها ويذهب ، وفجأة تحرك الرجل ولحق بحافظ وأخرج له بطاقته « اتفضل ، أحب أن تشرفني في محلي » ٠٠ وتمتم حافظ قارئا « توفيق الحملاوي ، تاجر تحف بازار الأمانة ٠٠ خمسة شارع قصر النيل » ٠

ـ ضروري تزورني ٠

ـ يسعدني ذلك لكني لست من هواة التحف ٠

ـ ما أردتك لذلك ٠٠ يهمني أن أتعرف بك ٠

ـ حافظ عبد المعبود ٠٠ بدار الكتب ٠٠ قسم المراجع التاريخية ٠
ثم تصافحا ومضى كل الى سبيله ٠

٢

دخل حافظ متجر التحف القديمة وقاده أحد العمال الى حيث جلس توفيق خلف مكتب على طراز عرابي ، وقف مرحبا « أهلا ٠٠ أهلا ، كنت يئست من قدومك » لم يجبه حافظ فقد استحوذت عليه المعروضات ووقف مشدوها مبهورا ٠٠ أكداس وأكداس ٠٠ على الأرض والحائط أو مدلاة من السقف وقال توفيق « قد تعجب أو علمت سر رغبتي في حضورك ٠٠ أتفضل أقعد » ٠

لكن حافظا ظل واقفا يتأمل تلك المعروضات ٠٠ فرنسية ، ايطالية ، هندية ، تركية ، ثم مصرية قديمة ٠٠ وأعاد توفيق دعوته « يا أخ حافظ ٠٠ اتفضل استرح » ٠

ـ آه ٠٠ لا مؤاخذة ٠٠ انها رائعة ومتنوعة ٠

ـ عرق وجهد سنين ٠

ـ ولماذا تكدسها هكذا ٠٠ هل السوق ضعيفة ؟

ـ اطلاقا ٠٠ وتجارتي دائما رائجة ٠

ـ ولماذا لا تتخلص منها بالبيع حتى لا تبور ؟

ـ انها كالخمر كلما احتفظت بها عتقت وصارت أمتع

ـ وأربح ؟

ـ فعلا ·· ماذا تشرب ؟ عندى قهوة لا مثيل لها ·

والتفت مناديا « ياطه ·· دور قهوة عربى » ثم اتجه الى حافظ « والآن تعال أريك بعض معروضاتى ·· وبالذات المصرية القديمة فهى أثمن ما عندى » ·

وفى ركن وقف حافظ يتأمل نماذج من الفن المصرى القديم ·· تماثيل وأوانى وحلى · تشبثت عيناه بتمثال لفتاة هيفاء تحمل على رأسها سلة ، وأمسكت بيدها أوزة ، همس حافظ « حاملة القرابين؟ » ثم صرح لتوفيق « انها بلا شك مقلدة » ·

ـ بل قطعة أصلية ·

ـ وكيف حصلت عليها وهى النموذج الوحيد فى مصر ؟

ـ ظهرت نسخ عديدة وباعت مصلحة الآثار ما يزيد عن الحاجة ·

ـ وهل تجد دائما ما يزيد عن الحاجة ؟

ـ اذا لم يوجد فمصيره أن يتواجد ·

ـ لا أفهمك ·

ـ أقصد أنه مع كل جرد أو اكتشافات جديدة أو بسبب خطأ فى التسجيل تظهر بعض القطع المكررة ·

ـ لكنهم الآن يستخدمون آلات حاسبة دقيقة لا تخطىء ·

ـ حتى مع هذه نستطيع أن نجد شيئا زائدا عن الحاجة ، وعلى أن أحول ذلك الفائض الى شيء ذى قيمة ·

ـ وقد تخلط الحقيقية بالمقلدة ؟

ـ وما الضرر فى ذلك وعملائى من الأجانب ؟

ـ ألا تبيع شيئا منها للمصريين ؟

ـ انهم لا يشترون الا التحف الأجنبية وهذه لا داعى للغش فيها ·

ـ أعتقد أن الأمانة لا تتجزأ ·

ـ ولهذا السبب دعوتك ·

ـ وما علاقتى بهذا كله ؟

ـ أريدك أن تعمل مديرا لمبيعاتى ·

ـ لكنى موظف حكومى ·

ـ أترك وظيفتك وسأعطيك ضعف راتبك ·

وفاحت رائحة بن يحترق فقال توفيق « حان شرب القهوة » وفى عودتهما الى مجلسهما السابق شاهد حافظ عاملا يطحن البن ثم وهو يعد القهوة التى قدمت لهما بعد دقائق فى أوعية عربيه ، وعلق توفيق « وبهذه الرائحة أحرك شهية السائحين للشراء » ·

ـ مهارة تحسد عليها ·

ـ ورغم ذلك فأنا فى شدة الحاجة الى مدير مبيعات أثق فيه ولا أجد فيمن حولى من يصلح ، كلهم طامعون أو مغرضون ·

ـ لكنى سعيد بعملى بدار الكتب ·

ـ أنك تضحكنى ·· وهل يوجد هناك عمل ؟

ـ عمل ضخم ·· الاستعارات ·· تصنيف الكتب ·· ارشاد المترددين ·

ـ انك تحاول أن تعطى عملك بعض الأهمية ·· ماذا يحدث لو أغلقت مكتبتك التاريخية ؟

ـ شىء أخطر مما تتصور ، لكن لو أغلق متجرك فلن يشعر به سواك ·

ـ بل يفقد عشرات من العمال رزقهم ، وتحرم البلد من عشرين ألف جنيه استرلينى قيمة مبيعاتى السنوية للأجانب ·· بخلاف الضرائب ·

ـ ما كنت أظن أن تجارة الفن والتاريخ رابحة بهذا القدر ·

ـ أليس هذا خيرا من الاحتفاظ به فى كتب يعلوها التراب وتصيبها العثة ·· ؟

ـ لكنها تبقى للأجيال القادمه ·

ـ فضك من هذا كله ·· ما رأيك فيما عرضته عليك ؟

ـ لن أصلح لك ·

ــ عرضى مازال قائما ·· وفكر ·

ــ سيطول انتظارك ·

ــ صبرى طويل ·

٣

وقف حافظ بقاعة الاطلاع الواسعة ·· شيوخ ورجال وفتية وفتيات وأولاد صغار ، جاء البعض للبحث والاطلاع ، ومن الشباب من جاء ليتنسم الحب ، والغرام بينما الكتب البريئة تبارك اللمسات وتسمع الهمسات ·· أما الأولاد فقد ضاقوا بدورهم المكتظة وجاءوا ليستذكروا فى جو هادىء واضاءة قوية ·

وأخذ يمر بينهم يملأ برؤياهم شغاف قلبه بجدهم وعبثهم ، ويتمعن فى وجوههم غير النظيفة وشعرهم المشعث وملابسهم البالية وأياديهم المعروقة ·· وأظافرهم التى لم تفلح أن تنفره منهم ·· بل طاف عليهم يرى فيهم طفولته ويبش لعبثهم رغم ما يسببه وجودهم من متاعب ·

وسار بين الموائد المصفوفة يتصفح الوجوه الشابة لعله يعثر على أولئك الذين استعاروا كتبا بضمان منه ثم ذهبوا ولم يردوها بعد انقضاء المدة المقررة ·

وقطع بحثه دخول المدير فجأة · أثار اقتحامه المكان همهمة واضطراب ·· فتباعد المحبون واحتموا بالكتب التى أمامهم وانكمش الأولاد وتضاءلوا لأقل حجم ، وصيحات المدير تزيدهم انكماشا « من المسئول اليوم عن القاعة ؟ » ، وتقدم اليه حافظ قربانا مهذبا على مذبح غضبه ، وصاح فيه « ألم احذرك منذ أسبوع من وجود الأولاد هنا ؟ هذه قاعة اطلاع وبحث ··· فاهم ··· » وأجاب القربان « سيادتك تعلم أننا بمنطقة شعبية ·· وقد حضروا هربا من بيوتهم » ·

ــ الدار مؤسسة ثقافية وليست مؤسسة اجتماعية ، هذه آخر مرة أقبل فيها مخالفة النظام ·

التفت حافظ الى الأولاد لكنهم كانوا قد جنبوه احراجهم ·· تابعهم وهم يغادرون القاعة بشفقة وأسف العـاجز ·· وعاد ليمر بين الموائد باحثـا عن ضالته ·· وراح يفكر في مشكلته ·· عليه أن يسترد تلك الكتب منهم خلال سبع أيام والا فليدفع قيمتها ·· هكذا أنذره مديره ···

··كيف أتصل بهم ؟··واذا عثرت عليهم فهل سأجد الكتب فى حوزتهم؟ مشكلة وضعت نفسى بها ·· ولاشك ان المدير سيتمسك باللوائح ·· لويمهلنى مدة أطول ؟ وكيف يعطينى تلك الفرصة وأنا أملأ القاعة بالأولاد ؟

وبينما هو يترنح بين أفكاره المحيرة وجد أمامه توفيقا ومعه فتاتين ·· حياهم تحية واجمة وطرح توفيق سبب مجيئه «أريد أن استشيرك فى أمر هام» ثم أردف دون انتظار اجابته « تبحث لى فى كتبك هل كان قدماء المصريين يرتدون الملابس الكاملة أم عاشوا شبه عراة كما فى تماثيلهم ؟ » ·

ـ ولمـاذا السؤال ؟

ـ جاءنى أحدهم بتمثال نادر لأمير مصرى يلبس جلبابا كاملا وهو شيء لم يحدث من قبل وأريد أن اتحقق من التمثال ·

ـ وهل يصعب عليك فحصه ؟

ـ فحصته جيدا ·· وأريد أن أطمئن ·

ـ امهلنى يومين أو ثلاثة ·

ـ مستحيل ·· قد يعلم أحدهم ويخطفه ويضيع منى ·

ـ والله أنا فى موقف صعب وأرجو أن تصبر على ·

ـ خير ·· ماذا بك ؟

ـ ثلاثة وعشرون كتابا أخذها المستعيرون ولم يردوها ومطالب بدفع ثمنهـا ·

ـ كم هو ؟

ـ حوالى تسعة عشر جنيها ·

أخرج توفيق من حافظته مبلغا وقدمه اليه « خذ ·· ولا تحمل هما » ·

نظر اليه حافظ متضررا وقال » ابعد نقودك ·· أرجوك » ·

ــ انها نظير اجابتك عن سؤالى ·· وقد تمكنى من ربح مجز ·

ــ اعفنى من هذا الطلب ·· أرجوك ·

ــ لدى اقتراح آخر ·· أنشر لك اعلانا باحدى الصحف للدعوة المستعيرين لرد الكتب ·

استمع حافظ لهـذا العرض وتردد بين القبول والرفض ·· فى القبول افلات من تعنت المدير ·· لكن الجهود المبذولة فى البحث عن اجابة هذا السؤال البسيط لا تتكافأ مع قيمة الاعلان ·

وبينما هوفى تردده اعترضه صوت دقيق واضح النبرات « صاحبتى ضحى باباها فى جريدة النهار ويقدر ينشر ·· »

شدته اليها باقتراحها التأكيدى ·· طويلة ·· نحيلة التكوين ·· وجه أسمر ·· أنف متحد ·· شفتان عاطفيتان ·· وعينان لامعتان وعقب توفيق « خلاص ·· سماء أنهت المشكلة » ·

وانتقل حافظ ببصره للأخرى فقال توفيق « بهيرة الكبيرة ·· اليوم أجازة عيد القديس سان ·· سان » ·

وأنجدته بهيرة « سان جوزيف » ·

واستطرد توفيق متباهيا « فضلت المدرسة الأجنبية ··· هناك فرق كبير ··· المستوى ·· الراهبات ·· العربة من الباب للباب ·

وأحتجت بهيرة « بابا » ·

أمعن فيها حافظ النظر ·· قوام ذو خطوط انسيابية ·· يتطور الى انوثة كاملة ·· بيضاء جميلة ·· عيون جريئة ·· شعر فاحم ·

ثم التفت الى الصغرى فوجدها تبتسم له فسألها « وما هى وظيفة والد صديقتك » ؟

ــ لا أعرف ، لكنها قطعا وظيفة مهمة ، فهى دائما تهدينا أجندات وأقلام حبر ونوت من الجريدة ·

وقال توفيق « خلاص سماء تكلفت بالموضوع » .

وبعد أيام قليلة وفى نفس المكان وقف حافظ يستقبل العائدين ومعهم الكتب ، أعادوها مع اعتذارات وابتسامات ٠٠ ومعها عادت الى حافظ ثقته بالناس وتأكد طيب ظنه فيهم ٠

٤

كانت حادثة الكتب سببا فى توثق العلاقات بين حافظ وتوفيق رغم التباين والاختلاف الواضح بينهما سواء فى أسلوب الحياة أو فى تصورها وممارستها ، وقد تعلق توفيق بصاحبه الجديد تعلقا سريعا ، ألف جلسته وأحب رفقته وارتاح لمشورته ، وكثيرا ما أعطاه حافظ جوانب من الرأى لم تخطر على بال توفيق وكثيرا ما يثبت صوابها ٠

وامتدادا لهذه الصداقة صحب توفيق حافظا الى حفل مدرسة ابنتيه التى اعتادت أن تقيمه سنويا ٠٠ وفى الطريق الى المدرسة سأل حافظ « لماذا أرى عمالا جددا كلما زرتك بمتجرك ؟ »

ـ هم ليسوا عمالا ٠٠ بل مقاولى عمل ٠

ـ ماذا تعنى ؟

ـ العمل عندى بالمقاولة ٠٠ ترميم التحف مقاولة ، بيع المعروضات مقاولة ولهم نسبة من الأرباح ٠

ـ لكنك بذلك تحرمهم من حقوقهم كعمال ومن التأمينات الاجتماعية ٠

ـ هم سعداء بهذه الطريقة لأنهم يكسبون أكثر ٠

ـ هذا لا يضمن لهم استمرار العمل ٠

ـ هم أحرار مائة فى المائة ولا أجبر أحدا على العمل عندى ٠

ـ حاجتهم للعمل تضطرهم للقبول ٠

ـ هناك غيرى فليذهبوا اليهم ٠

ـ ومن تلك الفتاة النحيلة التى لا تكاد تعمل شيئا ؟

ـ كان أبوها يعمل عندى ثم مات فجأة وأردت أن أساعد اسرته ٠

— وكيف يسرى عليها نظام المقاولة ؟

— هى العاملة الوحيدة بالمحل بالاضافة الى الساعى والكاتب •

— وما سر هذا التمييز •

— هما أولا من عملا معى عند ما كنت ألف وأدور بالبضاعة على المحلات لأبيعها لهم •

— وفاء منك أن تفعل ذلك •

وأفتر فم توفيق عن ابتسامة عندما سمع كلمة وفاء وقال « ليتك تقبل العمل معي •• انى ارتاح لك كثيرا » ابتسم حافظ دون أن يجيب •

ودخلا المدرسة ، وعبرا حديقتها الكبيرة ذات الممرات المحدودة وامتصت أنظارهما مسطحات الخضرة المخنوقة بلافتات مانعات ناهيات •• ممنوع المرور •• ممنوع قطف الأزهار •• ممنوع الدخول •• ممنوع •• ممنوع ، حتى قاربا مبنى المدرسة • وهرعت اليهما بهيرة تتبعها سماء •• نظر الأب متعجبا وسأل « ما هذه الملابس ؟ » اجابت الكبرى وهى تدور حول نفسها مزهوة « هذه بدلة نابليون فى معركة أوسترليتز •• سأمثل دوره على المسرح » •

وتقدمت الصغرى تتصدى « سألعب دور ياور نابليون » ، وعلق حافظ ساخرا « هذا خير من دور جوزفين مثلا » • واعترضت سماء « ألم تكن ملهمته ؟ » •

— أراك معجبة بها •

— ولم لا ؟ وهى التى ألهبت طموحه ، فكانت عبقريته السياسية والحربية •

وتدخل توفيق « يكفيه أنه جمع تحف البلاد التى غزاها مما جعل اللوفر أشهر متحف فى العالم » •

وقال حافظ ليضع صورة كاملة عنه « وقتل ألوف المصريين وحرق القرى وضرب الأزهر بالقنابل ؟ » •

وقالت سماء بحماس « انها الحرب » ٠

ـ وحصار عكا وقتل ألوف الأسرى ؟

ـ كذبة أشاعها الانجليز لحقدهم عليه ٠

ـ بل ان ما سجله نابليون عن ذلك هو الكذب ، زيف الوثائق وحرف الوقائع بعد أن أصبح امبراطور ٠

وضحك توفيق « هاها ٠٠ هاها ٠٠ تاريخ مزيف وتحف مزيفة ولا أحد أحسن من أحد ٠٠ هاها ٠٠ هاها » ٠

وأدلت بهيرة بدلوها « لا تنسوا أنه جاء مصر ومعه علماء كثيرون وعثر جنوده على حجر رشيد وبه فسرت اللغة المصرية القديمة ٠

وأيدها توفيق « معك حق ٠٠ ولولاه ما كانت هناك قيمة للآثار المصرية ولما بعت أنا منها شيئا » ٠

وجاءت زميلة لهما تتعجلهما « اسرعا ٠٠ الحفل أوشك ان يبدأ » وذهبن مسرعات والأب يلاحقهن فخورا وسعيدا ٠

فى طريق العودة وبعد انتهاء الحفل صاحت سماء « ضحى وباباها » وعقب توفيق محدثا حافظ « هو الذى نشر عن كتبك الضائعة » ٠

واتجه حافظ اليه ليشكره وتقبل الرجل التقدير فى اعتداد ، وبفصحى تامة « لولا أكبادنا أفلاذنا ما نبضت أقلامنا » ثم أشار الى ابنته ، وشيعه حافظ بنظرة دهشة تحولت الى ضحكة أغضبت توفيقا فصاح محتجا « هل كنت تضحك بهذه الطريقة قبل أن ينشر مقاله » ثم التفت الى سماء وضبطها متلبسة بابتسامة فقال لها « ألم تذهبى اليه بنفسك ومعك ابنته تستعطفيه حتى استجاب لطلبك ؟ » ٠

توقفت ضحكة حافظ ورمق سماء وكأنه يرى أمامه انسانه عاقلة ناضجة وليست فتاة فى ربيعها الخامس عشر ٠

٥

ـ ماذا أصاب هذا الرجل ؟ ٠٠ يبدو غير طبيعى ٠

ـ يوسف الديب ؟ تعال أريك ما يرسمه ٠

ـ قد يعتدى علينا ٠

ـ لا تخف فهو من النوع المسالم ٠

واقترب توفيق وحافظ من الرجل وهو منهمك يرسم لوحة للعالم بقاراته الخمس ٠ أبرز العواصم الهامة على صورة عيون خضراء وصفراء وحمراء وزرقاء ٠٠ وغرس فى كل منها علما ميزه بحروف ، ت ٠٠ أ ٠٠ ت ٠٠

وسأله توفيق : « ماذا ترسم ٠٠ أهى لأمير موناكو ؟ »

ـ كلا ٠٠ خاصمته ٠٠ انها لأمير زنزبار وأعالى البحار ٠

ـ ومتى تبدأ فى ترميم اللوحات التى بالمخزن ؟ أريد عرضها للبيع ؟ فضحك يوسف مقهقها « احنا ورانا حاجة ٠٠ هاها ٠٠ هاها . حد فاهم حاجة ٠٠ ها ها ٠٠ ها ها ٠٠ كل سـنة وانت طيـب ٠٠ ها ها ٠٠ ها ها » ٠

وجفل حافظ وهمس : « ألا تخشى أن يدمر معروضاتك فى احدى نوباته ؟ » ٠

أجاب توفيق وهو يبتعد بحافظ : « انى أضع لوحاته التى يرسمها بين معروضاتى » ٠

ـ فكرة لا بأس بها ٠

ـ وأحيانا ما أجد من يشترى لوحاته ٠

ـ وهل يرضى أن يبيعها ؟

ـ بشرط أن أخبره أنهـا بيعت لأمير موناكو وعلى الآن أن أقول أنهـا لأمير زنزبار ٠

ـ وهل تعطيه نصيبه منها ؟

ـ يكفى أنى أعطيه أجره كاملا سواء عمل أو لم يعمل ٠

ـ وهل يسمح لك القانون باستخدامه ؟

ـ أراك تهتم بالقانون ولم تسألنى بكم بعت اليوم مثلا ؟

ـ ألاحظ قلة السائحين ٠

ـ وهذا ما يقلقنى ٠

ـ التحف كالخمر كلما قدمت عتقت ٠

ـ هذا كلام نردده للمشترين حتى ندفعهم للشراء ، ولكنى أشعر بالقلق من هذا الكساد ٠

وسأله حافظ مشيرا الى وفرة المعروضات : « أتقلق وكل هذا حولك ؟ » ثم التفت الى العمال قائلا : « فما بالك بهؤلاء ؟ » ٠

ـ من لا يملك أسعد ممن يمتلك ٠

ـ كيف ؟

ـ لا يخشى الكساد ولا يخاف الغد ٠

ـ الغد ؟

ـ الغد المجهول الذى لا يعرفه أحد ٠

ـ بعها واسترح ٠

وثار توفيق : « وماذا أفعل بعد ذلك ؟ هل تتصور أنى أستطيع الاستغناء عن العمل واستبدله بلا عمل ؟ » ٠

ـ اختر لنفسك هواية مسلية ٠٠ قراءة ٠٠ رياضة ٠

ـ تريدنى أن أصبح بلا عمل ٠٠ زائدا عن الحاجة مثل تلك النسخ المقيمة بالمقاهى والنوادى ٠

ـ لو مارست هواية بدنية أو ذهنية فلن تشعر بأنك زائد عن الحاجة ٠

ـ وما قيمتها ؟ ٠٠ هل تستطيع أن تحولها الى جنيهات أو قروش ؟

ـ انها تتحول في ضميرنا الى شيء ذى قيمة فى رؤيتنا للحياة وللناس .

ـ انك تتفلسف مثل كثير من الفاشلين .

ـ أراك فى حاجة لوقفة تنظر فيها الى حياتك الحاضرة والمستقبلة .

ـ لا حاجة للناجح لأن يتوقف .

وقطع عليهما يوسف هذا التراشق واقترب من توفيق وجذبه من يده الى لوحته التى أتمها وقال وعيناه جاحظتان : « ت .. تحف ، أ .. آثار ، ت .. تماثيل » ثم تركهما وعواؤه الضاحك يتردد فى المحل مدويا .

ثم نظر توفيق الى حافظ وهمس : « ت .. أ .. ت .. ألا تصلح اسما لشركة جديدة ؟ »

٦

لم يكن الرياش الفخم هو ما أذهله ، لم تكن السجاجيد الراقدة على الأرض تعرض فى صمت ابداع الفنان ودقة الصانع الانســان ، لم تكن هى التى هزته .. لم تكن الستائر المتراخية فى استســلام عميق هى التى جذبته .. انها صيحات توفيق الغاضبة يعنف زوجته: « أنت المسئولة أنت السبب .. لولا تساهلك معها ما فعلت ذلك » .

أجابت الأم بصوت خائر : « كيف أمنعها ولا علم لى بما حدث ؟ » .

ـ طبعا نائمة .. تشغل التليفون ثلاث ساعات .. ومصالحى وأعمالى تتعطل .

ـ هدى نفسك .. أعصابك .. تذكر كلام الدكتور لك .

ـ مرة توافقيها على فستان قصير .. ومرة تتركيها حتى منتصف الليل أمام التليفزيون .

تابع حافظ ذلك التقريع مشفقا ومتأسيا وممتعضا .. الاشفاق لبهيرة الواقفة فى ركن الغرفة وبين قدميها قطتها السيامية البيضاء تموء مواء باكيا .. والأسى لتلك الأم الطيبة المتساهلة ، والامتعاض من ذلك الأب العاتى الذى راح ينذر ويهدد : « لا تليفون ولا تليفزيون

من اليوم » ، واندفع نحو ابنته يهزها بعنف أفزع القطة فهربت ، ثم تحركت سماء لنجدة أختها ، وتسمرت الأم عاجزة الا من نظرات تستعطف حافظا ، ترجوه أن يتدخل وينقذ بهيرة .

واستطاع حافظ أن يسحب الأب المنفعل الى غرفة أخرى بينما تهديداته تتصاعد : « والله لأجعل منك عبرة لكل فتاة طائشة » . أجلسه حافظ وهو ما زال يموج ويمور وقال له ناصحا : « ما هكذا تربى الفتيات .. عليك أن تفهم دوافع هذا السلوك ثم توجهها وترشدها » .

— وهل أنا فاضى لمثل هذه التفاهات ؟ هل أترك أعمالى لأسمع لهذه وتلك .. ؟

ودق جرس التليفون ، ولعجب حافظ أجاب توفيق محدثه بكل هدوء وانقشع عنه غضبه فى سهولة ضغطة زر كهربائى فيحل الضوء ويطرد الظلام .. وقال من كان غاضبا : « اسبقنى بهم الى مينا هاوس » .

وقال لحافظ : « بنا .. لدى عمل مهم وسترى بنفسك كم أتعب لأجلهم .. لكن لا أحد يقدرنى » .

ووصلا الفندق وكان فى الانتظار فوج سياحى ، ركب الجميع الجمال بين الصخب والمرح وتهادت الجمال بهم عبر صحراء الهرم ، وأوغلت بين الربى والتباب ثم ظهر على مسافة مخيم منعزل . ما أن قاربوه حتى أسرعت نحوهم كلاب وحشية تنبح نباحا شديدا وتهاجم القافلة .

اضطرب الحال وساد الهرج والمرج وشاعت الفوضى وزعق أحد رجال توفيق : « يا اسماعيل .. يا على .. يا حسين » وخرج من المخيم رجال بالملابس العربية وطاردوا الكلاب بالعصى حتى فرت ، وانتظمت القافلة وأدركت المخيم وترجل الجميع ودخلوا خيمة كبيرة وافترشوا الأرض ثم دارت أكواب الشاى .

جىء بتماثيل أثرية وأوعية فخارية وشرائح حجرية وبعض الجعارين ، عرضها توفيق بلغة أجنبية واضحة ، وفى مهارة وبراعة شرح قيمتها الفنية والتاريخية وسرعان ما تحولت تلك الكلمات الى عدة مئات من الجنيهات أودعها جيبه الشره ٠

طفق حافظ يرقب ويتأمل ما يدور أمامه فى دهشة ثم بضيق ٠ لم ينبس بكلمة والتزم الصمت حتى جلس بجوار توفيق بالعربة فى طريق العودة ، ثم نطق : « لماذا اخترت هذا المكان البعيد ؟ »

ـ لأحرك خيالهم ٠٠ الجمال ٠٠ الصحراء ٠٠ الأهرام كلها مثيرات ليشتروا ٠

ـ ألا تخشى عليهم من تلك الكلاب الضالة ؟

ـ ومن أدراك أنها ضالة ؟ انها كلابى وهى مدربة تهاجم ولا تضر ٠

وردد حافظ وقد أطلق بصره خارج العربة : « تمثيلية ٠٠ تمثيلية كبرى » ٠

وفجأة صاح فى توفيق : « أوقف ٠٠ أوقف العربة » ٠

وامتثل توفيق لأمره على الفور منزعجا « ماذا أصابك ٠٠ ماذا هناك » ؟ ٠

ـ أشعر بالاختناق ٠

وغادر العربة يتبعه توفيق المذهول : « حافظ ٠٠ ماذا بك ؟ » ٠

ـ أريد هواء نقيا ٠٠ أريد أن أمشى وحدى ٠٠ دعنى ٠٠ دعنى أرجوك ٠ ثم مضى مهرولا وتوفيق يناديه : « حافظ ٠٠ انتظر ٠٠ المسافة بعيدة ٠٠ تعال ٠٠ لا داعى لهذا التعب » ٠

لكنه كان قد أوغل فى السير مصرا على الابتعاد ٠٠ بينما الصورة ماثلة ٠٠ الجمال المتهادية ٠٠ الكلاب العاوية ٠٠ صيحات السائحين الراطنة ٠

وسار يتقيأ خواطره حتى أدرك داره · وهناك أخلد للراحة ولاطراقه ·· ثم نظر الى كتبه ولمح عتابا على غلاف أحدها ·· كان قد شرع يقرأه وقطع منه شوطا ·· دفع المعرة عن شيخ المعرة ·· ثم تركه ونحاه عندما دعاه صاحبه لرفقته ·· حتى طالت غيبته وهجرته ·

وأمسك بالكتاب وقلب صفحاته ليواصل ما انقطع ويوصل ما انفصم · عاد الى سابق عهده بعد أن كاد ينعرج ويحيد ·

الفصل الثانى

٧

المياه هادئة ، لا هى حمراء طامية ولا زرقاء صافية ، هى مياه التحاريق شحيحة وداكنة ، قليلة وغائرة ، تغيظ الزراع وتكيد الصائد · على سطحها أعشاب متشابكة تشابك الحياة ·· بل وتشابك أفكاره ذاتها ·

المياه بذلك الجزء من النهر تتهادى هنا وهناك ·· احتجزها لسان جسور اعترض المجرى صانعا لنفسه خليجا ·· ورمى حافظ الشص الى الماء كما فعل مئات المرات ، وأطل على الخليج ، خليج حياته الذى اختاره لنفسه ·· لم يكن بالأعزب المغامر أو بالزوج المسالم ·· بل مزيج منهما ·· لم يساير الناس ولم يله لهوهم أو يشاركهم متعهم ، حتى اذا هفت نفسه الى منطلق جاء الى هذا اللسان حيث الماء والهواء · يترقب السمك ويتصيده · استعاض بتلك الرياضة ·· رياضة التأمل عن ضروب أخرى من المتع والجمال ذات النبض اللاهب والحس الجارف ، أفلح فى ترويض رغباته وحكم نزواته واجتاز فترة الشباب العاصف ، ولقد كان فى مقدوره ومن موقع عمله أن يقيم علاقات مع مرتادى الدار ومرتاداته ·· فيتعرف ويتحبب لكنه اعتبر الجميع فى امانته مثل تلك الكتب التى فى حوزته يرعاها ويدرسها دون أن يملك من أمرها شيئا ··

هكذا مضت به حياته أو مضى هو بها ·· بين حافتين ·· حافة النهر الخالد ·· حابى العظم ·· حيث يتريض أو يروض ·· ثم حافة الكتاب يتمعن ويتزود ·

وتحركت الصنارة بسمكة كبيرة تتثنى وتتلوى ·· أنها بلطية كبيرة · مازالت تقاوم وتناضل وقد أمسك الهواء بخناقها ، نفس الهواء الذى جاء ينشد

نسمته ، مازالت تحاول بقوة حتى استطاعت أن تخلص نفسها من الصنارة واختـفت فى دائرة من المـاء ووجـم حـافظ ، لكنـه سرعان مـا ابتسـم

وهمس « أنها أقدم أسماكه ، كم عاشت ورقصت بين أمواجه ٠٠ أمواجه المتحركة من الشمال الى الجنوب ٠٠ ومياهه المتدفقة من الجنوب الى الشمال ٠٠ المتناقضة السرمدية التى أرسلها فى ضمير الوادى فكانت حضارة الزراعة ودولة السدود والجسور ، فاض عليهم بخيره فعبدوه ٠٠ حابى العظيم ٠٠ بل عبدوا منظيمه من الفراعنة ٠٠ حكام ضوابطه الأولين ٠٠ طيبون أولئك المصريون الأقدمون ٠٠ عبدوا ما ينفعهم ابتغاء فضلة وعبدوا ما يضرهم اتقاء شره »

الأمواج نشطة تأتى وتمتد ثم تروح لترتد ٠٠ حتى ارتد هو الآخر عائدا بسلته الفارغة عاد الى كتابه ٠٠ ليجالس أبا العـلاء ، وليتمعن فى سـيرته وأسباب عزلته ٠٠ التى اختارها لنفسه بعد أن صدمه الواقع المر ٠

توقف عند صفحة موجعة من سيرة الشيخ ٠٠ وضرب بفكره فى المـاضى السحيق ٠٠ وتمثل الشيخ العـاجز عن مصـاحبة الأصـحاء فى يوم الحياة الرتيب ٠٠ ونفوره من الناس المنزلقين الى النفاق والرياء والفساد ٠٠ ثم شقوته يوم أن سحبوه من قدميه مطرودا من حضرة نقيب أشراف بغداد لخلاف فى الرأى ثم بعد أن اعتزل واعتكف متخذا الكتاب خلا ونديما ٠

نفس الكتاب الذى لجأت اليه ٠٠ لم أجد منفسا آخر غيره أفرز فيه معاناتى بعد أول تجربة لى فى بداية عهدى بالوظيفة ٠٠ ثمانون جنيها كان المفروض أن اشترى بها كتبا للدار ٠٠ أودعتها جيبا خفيا ، وجبت دور النشر للحصول على السعر الأدنى ٠٠ ولم أحصل الا على اتهام بالاختلاس بعد أن سرق المبلغ منى وكدت أن أقدم الى النيابة لولا أن أمدنى أبى بالمبلغ ٠٠ ورغم ذلك فقـد استكتبونى اقـرارا بمسئوليتى وطاردتنى الاشـاعات ولاحقتنى نظرات الشك والريبة ٠٠ وكرهت المكان ومن فيه وآثرت الوحدة واصطفيت الكتاب ٠٠ وتحولت سلوتى الى آفة وداء ، وصارت القراءة متعة ولذة أمضى بها ساعات طويلة متواصلة ٠٠ وأحيانا أتوقف عند تلك السطور عسيرة الفهم أو الرائعة التكوين والمغزى ٠

« سى حافظ ٠٠ سى حافظ » نادته الخادم العجوز وشدته من ذكرياته: « نظفت وغسلت » واستطاع أن يجىء بانتباهه لها ويجيبها : « متشكر ٠٠ متشكر يا أم صلاح » ٠

ـ قد لا أحضر الأسبوع القادم حسب الميعاد ٠٠ مسافرة لابنتي ٠

ـ مع السلامة ٠

ـ أريد قرشين ولو من الحساب ٠

وأخرج لها خمسين قرشا تأملتها وبنفس وتيرة الطلب قالت « كملها جنيها » هزها بيده بلا تعليق ٠ أخذتها ودستها بصدرها ، وهمت بالخروج لكنها عادت الى احدى الغرف وقد تذكرت أمرا ما ثم جاءته بأربع كتيب أعطتها له قائلة « وجدتها بجوار دولاب الملابس » ٠

أمسكها وقلبها ٠٠ خاتم كبير بشعار الجمهورية ٠٠ وزارة الثقافة ٠٠ دار الكتب ، كان قد استعارها وفقدها وأدى قيمتها ضمن ما دفعه ٠٠ كلها عن كيلوباترا ٠٠ شاكسبير ٠٠ أحمد شوقى ٠٠ برناردشو ٠٠ أميل لودفج ٠

لم تكن المشكلة فى كيلوباترا ولا فى سحرها أو مأساتها ، بل فى الكتيب الأربعة ٠٠ لا يستطيع الاحتفاظ بها لأنها تخص الدار ، ولا يمكنه ردها لأنها شطبت من السجلات ، جلس حانقا على نفسه وعليها ٠٠ وعلى قيصر ٠٠ وأنطونيو ٠٠ واكتافيوس ٠٠ حتى قيصرون ابنها ٠

٨

ذهب الى الدار ومر فى طريقه على بائع الفطير الضرير ٠٠ القابع بجوار الباب ، اعتاد أن يشترى منه قطعة يوميا ، وما كان يأكلها بل ليطعم الوغد ٠٠ قط فحل سماه بالوغد بسبب عادته وخيلائه ، كان اذا افترس فأرا دار وهو بين أسنانه نازفا دمه مستعرضا وحشيته ٠٠ ويتعالى صراخ الموجودين وتقزز الموجودات ، وتكون تلك الصيحات اعلانا له باقترابه ٠٠ حتى اذا جاءه اتجه الى ركن وبدأ وجبته ويختمها بقطعة الفطير ٠

وما كان القط بحاجة للفطير فلديه من الفئران الكثير وما كانت الفئران بحاجة الى بقايا الفطير المتخلف من القط فلديها من الكتب الكثير ، لكنها فكرة راودت حافظ وكون بها علاقة تتابعيه ـــ بائع الفطير ٠٠ هو ٠٠ الوغد ٠٠ الفئران ٠٠ الكتب ٠٠ فالقراء ٠٠

في ذلك اليوم نسى تلك الدائرة ومن فيها ، وصعد الدرج العربى الطراز دون أن يلتفت الى تلك المجلدات الأثرية الضخمة التى تعترض كل عابر .. ذهب مباشرة الى عبد العال ، زميله وحلال العقد ومفسر اللوائح .. لجأ اليه ليفتيه في مشكلته ، نظر اليه مستخفا بقوله وعلق « وهل هذه مشكلة ؟ انتظر الجرد القادم وسجلها اضافات جديدة » .

— لا أستطيع أن أنتظر حتى الجرد القادم .

— هاتها .. فأنا من عشاقها منذ أن غنى لها عبد الوهاب .

— الأفضل أن أكتب تقريرا للمدير بالموضوع .

— تذكر انذاراته العديدة لك .. هذه المرة فيها نقل الى مكتبة فرعية بأقصى الصعيد .

— لا يهمنى .

— سمعت كلاما عن انشاء مكتبة في ديرمواس .

— ديرمواس ؟ بلدة اخناتون .. لا بأس فأنا بحاجة لتغيير المكان والزمان

— وترضى بهجرة الجبرتى وابن خلدون والكندى ؟

— اذا لم يكن من الهجر بد فمن العجز أن تكون جبانا .

— أو لتعجب بك احدى السائحات بين الأطلال .

— أرجوك أن تكف عن هذا الهذر .

— ثم أن المدير مشغول حاليا بالبيان الجديد ..

وأخرج له منشورا قرأه له « تستهدف الدار مواكبة المد الثقافى والعمل على تيسير خدمة مكتبية شمولية بأحدث النظم العلمية ، وعلى ذلك تقوم جميع الأقسام بتحرير بيان احصائى بالنشاط الاطلاعى خلال الأعوام الثلاثة الماضية ... الخ »

— لن يحول ذلك دون تقديم تقريرى .

ولم تمض أيام قليلة حتى أعيد اليه التقرير وعليه قرار المدير « اشكر السيد حافظ عبد المعبود لاعادته الكتب الأربعة ويؤدى له ما سبق أن حصل منه لفقدها ..... ويخصم منه غرامة تأخير مضاعفة نظير الايام الزائدة عن مدة الاستعارة المسموح بها ...... ويخصم من راتبه يومان لاستعارته أربع كتب مستغلا وظيفته » استشاط حافظ غضبا ورفض التوقيع بالعلم بمضمون القرار،وصمم أن يرد بمذكرة يفند ما اتهم به.التهبت رأسه وتضاربت أفكاره مع خطاه صاعدا وهابطا السلم الخشبى المتحرك ، يأتى بالكتب من الأرفف ليدون منها البيان الاحصائى المطلوب .. اذا نزل صعدت غضبته حتى هامته .

.. لم يعاقبنى الا بسبب وجود الأولاد المتكرر بقاعة الاطلاع،لم يؤاخذنى يوما حتى لا يتهم فى اتجاهاته الشعبية وانتظر لى هفوة .

وكيف أطردهم وهم فى حاجة الى المكان ؟ وما جدوى قاعة خاوية مصانة بتعنيمات عقيمة ؟

واذا ارتقى السلم أنزل على مديره اللعنات .. مدير لوائحى ، لكن لن ينالنى .. والسلم الخشبى الهزيل يئن تحت عنف خطواته الصاعدة والهابطة ، وتمردت قدمه فزلت واختل توازنه واستنجد بالأرفف لكنها تداعت وانهارت معه واختفى تحت وابل من الكتب .

زام وتوجع وساقه أكثر منه توجعا ، أسرع اليه زملاؤه وتعاونوا حتى أخرجوه من بين الكتب وحملوه الى أريكة قريبة ، اقترب منه زميله المفتى وقال مسريا عنه « يا أول ضحايا الثقافة الشمولية .. ستخلدك سجلات الدار كأول مصاب بالكتب .. ثم أنك أعفيت من البيان اياه .. والله أتمنى اصابتك لأفلت من هذا السخف » .

وجاء المدير ليتقصى ما حدث وأفسحوا له ممرا بينهم واحاطوه بنظرات التقدير والتبجيل ورآه حافظ وصاح مشحونا بآلامه « لماذا تعاقبنى عن شيء يحدث مثله كثير بلا حساب وبلا مؤاخذة » ابتسم المدير بحصافة وقال « لا تنسى انى شكرتك » فصاح موظف بصوت منفعل « ياعمر بن الخطاب » .

التفت اليها المدير ومنحه ابتسامة راضية وقال « قل له ياصفتى ان سلامته أهم شيء » تحمس الصفتى ملبيا توجيهات المدير « دعك الآن ياحافظ من موضوع الشكر والعقاب .. مديرنا عادل ويحب النظام » .

عاد المدير الى مكتبه ·· مشيعا بهتاف الصفتى « يا عمر بن الخطاب » بينما ظل حافظ يجتر آلامه ويعانى عجزه عن الحركة وبالأكثر عجزه عن رد الظلم عن نفسه حتى حمله رجال الأسعاف الى عربتهم ·

٩

لزم حافظ داره وتقيدت حركته ، ووضعت ساقه فى نطاق من الجبس ، وأضحى عليه أن يعتاد الأمر خمسة وأربعين يوما ·· ذلك ما أمربه الطبيب اعترض حافظ « الميت تنتهى مراسم أحزانه بعد أربعين ·· وأنت تزيدها خمسا » ·

ولم يجد الا الكتاب يستهلك عليه وقته المملول ، جمع منها الجاد والهازل· كان أكثرها جدا تلك التى تتحدث عن أبى العلاء ·· بدأ به ، تابع حواره وتمعن فى آرائه ونظراته الى الحياة حتى أمسك الشيخ برأسه وقفز بحججه الى مخه ·· قهرت جسدى وأخرصت نداءه فلا عاد يلوى أحشائى فتئن جوعا ولا عاد يلهب الحس منى فيعوى طلبا ، ولم أدع له ألا الجذوة الخافتة ·

ـ كأنى بك أردت أن تتحرر من قيود الجسد ·

ـ لا كل التحرر لكن للدرجة التى أستطيع أن أطلق فكرى وأخفف عن روحى ·

ـ لكن الروح لا تتحرر الا بفناء الجسد ·

ـ أردت أن أقترب من فترة النهاية لأكتشف نفسى ووجودى ·

ـ وهل أستطعت ؟

ـ كدت أصل أو هكذا ظننت ·

ـ وما السبب ؟

ـ العقل بؤرة الشك ومصدر الحيرة ·· هو الآخر قيد أعتى من الجسد

ـ وهل أستطعت أن تخفف جذوته ؟

ـ بل ظل يقظا كل اليقظة ساعيا معى الى الحقيقة ·

ـ وهل أدركتها ؟

ـ لم أدركها ٠٠ وكنت أستسلم لليـأس أحيانا فيهدأ بالى ثم أثور فينشط عقلى ٠٠ وهكذا ظللت رهين المحبسين ٠

ـ الدار ٠٠ والضرارة ؟

ـ بل الجسد والعقل ٠

ـ خمسين عاما وأنت تبحث ؟

ـ بل العمر كله ٠

ـ ما كان أغناك عن هذا العناء ٠

ـ هذا جناه أبى على ٠٠ وأيضاما جناه عليك أبوك ٠

ـ أبى ؟ وما شأنك به ؟

ـ ألم يكن وسيلة وجودك فى هذه الدنيا ؟

ـ وماذا فى ذلك ؟

ـ أسعيد بحالك ؟ أراضى عن نفسك ؟ أمقتنع بجبرية مصيرك ؟

ـ هذه أسئله شائكة لا داعى لاثارتها ٠

ـ لكنها موجودة فى ضميرك ٠

ـ بلى ٠

ـ اذن فهى قائمة سواء أردت أو لم ترد ٠

ـ بلى ٠

ـ أين اذن حرية الاختيار وحرية الارادة وحرية الرأى ٠

ـ وانها موجودة ٠٠ موجودة ٠٠ هذا النقاش نفسه يثبت وجودها ٠

ـ انك تضحكنى ٠ كيف تكون موجودة بينما السؤال الذى فى ضميرك لا تجسر على مناقشته أو الاجابة عنه ؟

ـ كفى ٠٠ كفى ٠٠ كفى

ـ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠

ـ ولماذا لم تجب عليه أنت ؟

ـ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠

ـ أجب ·· تكلم ·· أين ذهبت ؟

وأخلد حافظ لنفسه وأفكاره ثم أمسك بالقلم وكتب « السؤال المحير »

ـ وساقة الممددة أمامه لها يوم محدد ومعلوم تخرج فيه من أسرها ، أما سؤاله الحائر فمازال يضرب فى اغراقته الضبابية ·· حتى صحا واستيقظ على شيء يسقط فى الشرفة ··· قذف بها بائع الجرائد كعادته كل صباح ·

توكأ على عصاه حتى تناولها ، فتحها كما ألف على صفحة الموتى اهتمام تقليدى بالموتى ومعتقدة موروثة تجسدها اهرامات الجيزة منذ خمسين قرنا ·· واليوم الصفحة أكثر سوادا والنعيات أطول عودا ·· شركات الغزل ·· شركات النسيج ·· شركات المنسوجات الصوفية شركات الصباغة والتجهيز ·· شركات المنسوجات الحريرية ·· والمتوفى شقيق حرم رئيس صندوق دعم المنسوجات ·

وردد حافظ « ليطمئن خوفو على ما أورثه لنا » وقبل أن يتم تصفح الجريدة نهض ليستقبل الطارق ·· عبد العال ومعه الصفتى ·

ـ أهلا ·· أهلا ·

بعد الجلوس باردة الصفتى « لا تؤاخذانا أصل الا ·· » ·

ـ أبدا ·· انا معتاد الصحيان مبكرا ·

ـ أقصد أننا حضرنا من أجل ال ··

ـ أنا مقدر مسئوليتكما بالبيان الاحصائى ·· كان الله فى العون ·

ـ سيادة المدير يهديك تحيته ·

ـ متشكر ·· متشكر ·· شاى أم قهوة ؟

ـ لاداعى فمهمتنا رسمية ·

ـ رسمية ؟

ـ كلفنا السيد المدير بعمل تقرير عن الحادث ·

وضحك حافظ متهكما « فيم العجلة ولوائح الدار لا تتحرك الا بعد خمسة عشر يوما ·· مدة الاستعارة القانونية » ؟

ـ الأمر بسيط ·· كلمتان منك وتوقيع على الاقرار والمنشور وينتهى الأمر ·

وكأن حافظا قد غز بنصل حاد فهب واقفا بساقه المصابة وصاح « اقرار آخر ·· لا ·· لا ·· ماذا يريد منى المدير ؟ .

ـ مديرنا عـادل ورحيم ·· ولا تنسى أنه تجاهل موضـوع الثمانين جنيها ·

ـ كنت حديث العهد بالوظيفة ·· لكن الآن الأمر يختلف جدا ·

ـ أرجوك أن تحسن الظن بمديرنا ·· ولولا سعة صـدره وسماحته لكان قد أحالك الى النيابة ·

ـ سعة الصدر هذه لم تكن لى ، بل لدفع المسئولية عن الدار التى كلفت موظفا حديثا بأمانات مالية ·

وتدخل عبد العال ليلطف الجو « انك تهول الأمر ياحافظ » ·

وابرز له الصفتى ورقة مطبوعة تناولها حافظ وتمتم « بند (١١) مكرر ·· ممنوع منعـا باتا اسـتخدام السلم المتحرك الا بمعاونة وحضور احد الفراشين » ·

وصوب حافظ لهما حدقتين ناريتين وفى صوت شـحن بالغيظ « منشور مضى عليه ثلاثة وعشرون عاما يتحرك فجأة وتتناوله يد التعديل ·· وبند جديد ·· ما قولك ياسيد عبد العال يامفتى » ؟ وتمايل عبد العال فى جلسته « للمدير حق تعديل المنشورات » ·

ـ ولمـاذا الآن ·· ولمذا أوقع عليه اليوم ؟

وتدخل الصفتى « لأنك لم توقعه قبل الحادث ·· ولوكنت قرأته ما سقطت » ·

ـ أنى أشك فى سبب التعديل وتاريخه ·

ـ أنه محرر قبل الحادث بثلاث أيام ·

ـ هل هذا الهام من المدير أم صدفة مدبرة ؟

ـ لا تتهور وتذكر أنك أمام لجنة رسمية ·

وصاح حافظ ثائرا « لن أوقع على هذا المنشور ·· وسأطعن فيه » وتدخل عبد العال ناصحا « اهدأ ياحافظ ·· الموضوع بسيط ·· بالكثير انذار أو لفت نظر » ·

ـ لفت نظر وأنا المصـــاب ·· ماذا يريد المدير ؟ ·· يحمى ادارته العفنة ·· أم لينتقم منى ؟

ـ تذكر انك أمام لجنة رسمية ؟

ـ رسمية أو غير رسمية اذهبا اليه واخبراه برفضى ·

وعقب عبد العال « امض قيـ ·· امض حافظ » ·

ـ لقد أخبرتكما بنيتى ولن أغير منها شيئا ·

وانسحبا ·· وعبد العال يهمس له خفية « أرجوك أن تقدر موقفى أنا مجرد عضو باللجنة وللرئيس سلطة الأرجحية » ·

أمسك حافظ برأسه يمنع انفجارها ونظراته الغاضبة تكاد تهشم نطاق الجبس معقله ، يود لو يحطمه وينطلق الى مديره المتجنى ، ثم دقات على الباب قوية ملحة تضاعف من عذابه وتصل به الى حافـة الهوس ·· وتحرك متحفزا لهذا الطارق ، فوجىء بتوفيق يلفحـه بصيحاته « لو لم تفتح لكسرت الباب » تقدمه حافظ وهو يتأرجح كقدر به ماء يغلى ·

عقب توفيق « أقلقنى غيابك ، لم أعلم بالحادث الا اليوم من زملائك وبعد فترة صمت سأله « أراك متعبا ·· ماذا بك » ؟ ·

ـ قرفان ·

ـ أخرج رفه عن نفسك بدلا من تلك الحبسة ·

ـ مشكلتى ذلك المدير ، يريد أن يسحقنى ·

ـ ألم أعرض عليك العمل معى وترك هم الوظيفة ؟

ـ وأرسل الى موظفين لأوقع على منشور أكون به مسئولا عن اصابتى·

ـ وماذا فى ذلك ؟ ·· أنا لو طلبوا منى لوقعت بمسئوليتى عن دارالكتب ودار الآثار ودار الأسعاف وعليها دار الشفاء ·· ماذا فى امكانهم أن يفعلوا ؟

ونظر اليه حافظ ساخرا لطريقته فى تبسيط الأمور ، واردف توفيق « حالتك لا تسرنى ·· هيا معى » ·

ـ لا أستطيع الخروج بهذه الحال ·

ـ بصراحة ·· أنا فى حاجة لك ·· بخصوص بهيرة ·

ـ ما بها ؟

ـ بعد المشاجرة الأخيرة امتنعت عن الأكل ·

ـ هل عرضتها على طبيب ؟

ـ باطنى وآخر نفسانى ·

ـ لعلها أحسن الآن ·

ـ بعد جلسات ولا جلسات تحضير الأرواح طالبها باضافة كلمة الى أم ·· وأب ·

ـ وما غرضه من ذلك ؟

ـ ليعرف سرها ·· فكتبت له أم الحبايب ·· وأبو جلمبو ·

لم يستطع حافظ أن يكتم ضحكة عاليه مرددا « أبو جلمبو ·· هاها · هاها » ورمقه توفيــق شزرا وبلهجة منفعلة « البس بدلا من هذا الضحك ، وسأله « ألا يثير منظر الجبس اضطرابها ؟ » ·

ـ بل لا بد من حضورك ·· لقد كتبت اسمك ضمن من تحب مجالستهم، واخبرنى الدكتور بألا أتركها وحدها ·

ـ لكن ساقى ؟

ـ أرجوك ·· أنت الوحيد الذى أثق فيه ممن ذكرتهم ·· أرجوك ·

اقترب حافظ من سريرها ، الوجه شاحب ، الشعر متهدل،الأطراف لا مبالية ، العينان معلقتان بالسقف ، لاحركة ، ولا اراده للحيــاة · دنا منها فلم تعره لفتــه « تنــاول يدها ناداها « بهيرة ·· أنا عمو حافظ » ·· لاصدى ولا رجع ·· جلس الى جوارها وهمس « لم أعلم الا الآن وجئت فورا » ·

سالت من مأقيها دمعتان ، وأجهشت اجهاشة مرة ، مسح شعرها بيده ثم مسح جبهة همومها ، تداعت باللمسة الحانية ، وانفجرت فى بكاء عصبى ·· جاء عليه الأب والأم والأخت رمحا ··

وقفوا دامعين وهو يربت على كتفها « حضرت رغم ساقى المجبسة » ، ثم رفعها لها بيضاء من غير سوء وقال « شوفى ··· شوفى » أطلت عليه من خلال دموعها ·· وقدمه فى اتجاهها قد أخفت رأسه عنها

فبدت محمولة على كتفيه ٠٠ اضحكتها الصورة واختلطت دموع البكاء بدموع الضحك ٠٠ والنبع واحد عيون واهنة ونفس حائرة ٠

ـ تعرفى كم كتاب سقط على ؟ ثلاثمائة تقريبا ٠

واهتز جسدها ضحكا ٠

ـ الجسم لا يستطيع حملها ٠٠ والعقل وحده قادر على استيعابها ٠٠ المخ أقوى عضو فى جسم الانسان ٠

وهز لها رأسه ليثبت لها قوتها ٠٠ وهى مغرقة فى الضحك ٠وضحك معها الجميع ٠٠ ودب النشاط فى الغرفة وعادت الحياة باشراقها٠٠ وراح يتـأمل وينهل من ينابيـع السعادة المتفجرة حوله ٠٠ يشرب لفتتاتهم المرحة ٠٠ وكلماتهم الباسمة ويحلق فى آفاق من المشاعر الانسانية النقية ٠

الفصل الثالث

١٠

المرآة صامتة ، وأمينة صادقة تعكس ما أمامها بدقة بالغة ، بهيرة شبه عارية ، وعلى الأرض مجلة سينمائية حافله بفتيات الشاشة وفرسانها ، ثم قطتها المدللة تلاحقها وتتمسح بساقها ٠ تسابق قدمها ، تستعطفها لتلتفت اليها ، لكنها مشغولة عنها تتطلع الى المرآة ٠ تقترب ثم تبتعد تقدم ساقا ، تتبعها بالأخرى ، تدور حول نفسها تتيه باتساقها وقوامها الفائر ٠

احتجت القطة بمواء زاعق ، وهى منصرفة عنهـا الى مقـاس احاطت به صدرها وهمست لمرآتها « الصدر ٨٢ ، الوسط ٥٧ » وجاءت القطة غاضبة لاهمالها فأنذرتها الفاتنة « أسكتى أو اطلعى من هنا ، فانزوت المسكينة فى ركن ذليلة حزينة ، واستمرت بهيرة « الحوض ٩٢ ٠٠ أنا زدت خالص ٠٠ لابد أن آخس ٠٠ كله بسبب ماما ٠٠ هى السبب » ٠

وقبل أن تتم تعليقاتهـا اندفعت نحوهـا سماء ثم تسمرت مدهوشـة بصورة اختها العـارية ٠ رمقتها بهيرة بنظرة جانبية واستمرت فى حوزاها الذاتى « ممنوع الفطار ٠٠ ممنوع النشويات ممنوع ال ٠

ـ البسى بسرعة ٠٠ خارجين ٠

وبلا مبالاة عقبت « المشـــوار الاسبوعى ؟ ·· لفة بالعربية على الكورنيش وأربعه جيلاتى ·· وانتهينا ··· لن أخرج » ·

ـ أنا طلبت من بابا نقعد فى جروبى ووافق ·

ـ طبعا لازم يوافق لك ·

ـ وعمى حافظ معنا ·

ـ صحيح ؟

وعادت سماء مسرعة الى غرفتها ووقفت أمام دولاب ملابسها ، فتحته على مصراعيه وطافت ببصرها لتختار · وحدثت نفسها ·· ماذا ألبس له ؟ الأصفر ؟ الأحمر ؟ الهافان ؟ التركواز ؟ آه ·· التركواز ·· لون محير ·· لاهو أخضر ولاهو أزرق·· نفسى أحيره»·

لكن بهيرة كانت أسبق منأ ختها ودخلت الصالة حاملة قطتها وعليها فستان غفا على جسدها ، لم يوقظه نفور صدرها منه وضيقه به ، ذهب الذبول والذهول ، ذهب المرض وحل الجمال والنضارة ، وغلق حافظ « كبرنا واحلوينا » ·

تخاجلت فى غير ما حاجة ، ثم قبلت قطتها قبلة خاطفة ، تبرم توفيق تحت ضــغط فتنتها المبــكرة ، لا يريدها أن تكبر ثم يواجه مشاكلها ·· ورجته « نفسى أقعد فى جروبى عــدلى » أجابهــا فى اصرار مغيظ « سنذهب الى جروبى سليمان » ·

ـ لــكنه عواجيزى خالص يابابا ·

ـ سليمان يعنى سليمان ·

وزحفت على وجهها موجات من الغضب واشـــتدت بقبضتها على قطتها فصرخت متألمة ، جاءت سماء جريئة فى ثوبها وتعليقاتها « بابا ·· قبل الخروج افرد التكشيرة » ثم أشـــارت الى جبينه · لم يجب بل وبادرها بأمر صـــارم « اذهبى واستعجلى أمك ·· والا فلن أخرج » ·

ذهبت سماء وقبلها ابتسامتها ورمت بهيرة بقطتها الى الأرض فى عنف وأشعل توفيق سيجارة ·· اتجهت بهيرة الى التليفزيون وأدارته بلا هوادة ·

تتابعوا على بصره ٠٠ وأراد حافظ أن يحدق فى كل الوجوه ، وكل الملامح فى وقت واحد وخالهم لوحة لفنان مجهول رسمهم جميعا معا ٠٠ بهيرة الغاضبة ٠٠ القطة الفزعة ٠٠ توفيق الحانق ٠٠ التليفزيون ٠٠ التليفزيون والصوت قبل الصورة « ضيف حلقة اليوم رئيس مجلس ادارة شركة الدلتا لصناعة النظارات » ٠

اتضحت الصورة ، رجل مهم ينفث خرطوما من الدخان « لقد غيرنا الاسم وأصبح شركة النيل العامة للبصريات » ٠

عادت سماء « ماما قادمة بعد قليل » ٠

قلبت بهيرة مفتاح التلفزيون ٠٠ وبدت ستارة بيضاء ذات مطر وذاذ ، فصاح توفيق « هاتى القناة الخامسة » ٠

الصورة : « وما هى أسباب تغيير اسم الشركة ؟ ٠

بهيرة : « انت زعلانة يا بوسى ٠٠ تعالى وأنا أصالحك » ٠

الصورة : « اتساع الانتاج وتطوره » ٠

دخل الخادم حاملا التليفون « تليفون لسعادتك » ٠

الصورة : « وما نوعية الانتاج الجديد ؟ » ٠

توفيق : « أريد قطعا هندية وصينية ٠٠ أكبر عدد ممكن » ٠

الصورة : « التليسكوب ٠٠ الميكروسكوب ٠٠ البنيكلور » ٠

بهيرة : « سامحينى ٠٠ متأسفة ٠٠ تعالى » ٠

توفيق : « سماء ٠٠ استعجلى ماما والا نقعد » ٠

الصورة : « وأقمنا مركزا تعليميا لرفع مستوى مهارة العمال » ٠

سماء : « يابابا أصبر ٠٠ زمانها خلصت لبس » ٠

الصورة : « وستزداد العمالة الى مائتين وخمسين عاملا وعاملة » ٠

توفيق : « شىء يزهق » ٠

الصورة : « اشتكى العمال من صعوبة المواصلات الى المصنع » ٠

بهيرة : « أجيب لك جاتوه يابوسى من جروبى » .

الصورة : « علمت بهذه الشكوى .. وطالبت بزيادة عربات المترو المتجهة الى المصنع » .

بهيرة : « تحبى المارون جلاسيه .. حاضر » .

الصورة : « وطالبت بتغيير اسم المحطة التى أمام المصنع حسب الاسم الجديد » .

سماء : « انت شيك جدا يا ماما .. مبروك الفستان » .

الصورة : « وفعلا وفقت مع المختصين وتم تغيير اسم المحطة وأصبح محطة شركة النيل » .

الصورة : « نشكر السيد رئيس مجلس ادارة شركة الدلتا للنظارات» .

الأم : « الفستان من أول لبسة طلعت السوستة خسرانة » .

الصورة : « أنا اسمى المسحوق رابسو .. أنا اسمى المسحوق رابسو» .

الأب : « ولماذا تلبسيه ما دامت السوستة خسرانة » .

الصورة : « أنا اسمى المسحوق رابسو .. رابسو .. رابسو رابسو» .

بهيرة : « خلاص يابوسى .. مارون جلاسيه .. باى باى » .

١١

اتجه حافظ كعادته الى بائع الفطير الضرير قبل أن يدخل دار الكتب ، ابتسم الرجل الضرير بمجرد أن التقط وقع خطواته وقال « نهارنا قشطة » وبحركة مسيرة فى ظلام نهاره بشعاع الممارسة امتدت يده الى مهرجان من الأوراق .. بيضاء .. صفراء .. زرقاء ، أمسك بالصفراء عفوا ووضع فيها قطعة الفطير ، ثم انتظر بها فى استسلام لمصيرها حتى أخذها حافظ وأودع مكانها قرشه المعهود .

وبنفس اللون الأصفر تسرولت طفلة صغيرة شيئا ما ، وأمسكت وهى تبكى بيدها الصغيرة أذنها الجريحة وبالأخرى ساق أبيها ٠٠ ولمح حافظ بشحمة أذنها ثقبا داميا تخلله ذبالة خيط ٠ مشروع قرط وقال « بنتك أذنها مجروحة ، ضحك الضرير ضحكة أزالت قتامة عبوسه وأجاب « خرمت أذنها ٠٠ ولما تكبر سأشترى لها قرطا ذهبيا ٠٠ ليس على الله بكثير » ٠٠ فكرر له حافظ أمنيته « ليس على الله بكثير » ٠

بدأ حافظ عمله اليومى بوضع قطعة الفطير فى مكانها وشرع يرص الكتب واحد تلو الآخر ٠٠ الدولة الفاطمية ٠٠ فتح الأندلس ٠٠ تاريخ ما أهمله التاريخ ٠٠ التاريخ السرى للاحتلال الأنجليزى ٠٠ سقوط الأسر الحاكمة ٠٠ السلام ولد ميتا ٠٠

أعجبه الأخير وراح يتصفحه ٠ جثمت على صدره الفكرة التشاؤمية للكاتب وأمله فى السلام ٠٠ وتابع قراءة بعض الفقرات وغرق فيها حتى أيقظه نداء « يا أستاذ حافظ ٠٠ أستاذ حافظ » التفت الى مصدر الصوت فاذا به أمام ساعى المدير « سيادة المدير يريدك » ٠

— أنا ؟ ٠٠ هل أنت متأكد ؟ ٠

— نعم ٠٠ وفورا ٠

ودخل ٠٠ كانت المرة الأولى رغم أنه أمضى بهذه الدار ستة عشر عاما ويزيد ٠٠ الغرفة فسيحة نوافذها عالية تدلت على جوانبها ستائر تثاقلت فى مهابة ، ثم استعراض ضخم من الكتب والمجلدات أخفت الحائط تماما ٠٠ ديكور عظيم لمحراب علمى أو أدبى ثم مائدة مستطيلة تدثرت بغطاء أخضر وفى النهاية مكتب له قوائم على صورة رؤوس أسود كشفت عن أنيابها ٠٠ ثم المدير والى جواره زائر أنيق ٠٠ ليس من المترددين المألوفين ، وقبل أن يصل الى المدير بادره « الأخ يريد بعض المراجع عن القومية العربية فى مفهوم عرابى »

قال حافظ بهدوء العارف « عرابى كان مشغولا بالقضية الوطنية ولم تكن له فرصة التفكير فيما عداها » وبلهجة لائمة قال المدير « ياأخى أنت مالك ٠٠ مطلوب منك بعض المراجع ولم يطلب رأيك » وأسرها حافظ فى نفسه ، وعقب «يتفضل الأستاذ يختار أى كتابين» ٠

ـ أى عدد يحتاجه أعطه له •

ـ واللائحة ؟

ـ سأمنحه استثناء منها •

وتحرك حافظ خارجا لكن المدير استوقفه قائلا « على فكرة •• أمامى تقرير ضدك •• لرفضك التوقيع على المنشور رقم « ٦ » •

ـ سيادتك تقصد بند (١١) مكرر •

ـ ولو كنت وقعته لما سقطت وكسرت ساقك •

ـ كيف أعلم به وقد صدر بعد الحادث •

ـ كلامك هذا لن يعفيك من المسئولية •

ـ أنا لست مسئولا •

ـ تريد أن تلقى المسئولية على الادارة وأنت المتسبب فيم حدث لك •

ـ تماما مثل موضوع الكتب الأربعة •

وغضب المدير وقال « أهذا هو تقديرك ؟ • • اذن سأعيد التحقيق فى الحادث • • وسترى نتيجة رفضك التوقيع على المنشور » •

ـ ألا يجوز لى ابداء وجهة نظرى ؟

ـ قلها أثناء التحقيق •

وأيقن حافظ أن مديره بيت النية على الانتقام منه ، ودارت برأسه الظنون وحدس وخمن •• وعاد الى عمله ولم يلتفت الى الوغد وهو يختال وبين أسنانه فأر صغير •

١٢

انسرب الى حارة ضيقة بحى السيدة زينب ، ودخل منزلا متهالكا ، وصعد درجات قليلة ودلف اليه •• عبد الحميد سامى ، مكتب بسيط بلا لوحات نحاسية أو خشبية بل جمع من الناس أقوى من أى يافطة • • حشد من الرجال والنساء والأطفال يشير اليه بكل بنان ••

جلس الأستاذ عبد الحميد خلف مكتبه الضيق وعيناه خلف نظارته السميكة تتحرك لكل نداء وشاربه الصغير ذو الشعيرات البيضاء يهتز مع كلماته المعسولة ٠٠ الحكم بعد أسبوع حضر الحلاوة ٠٠ قدمت مذكرة للقاضي ترجع لك زوجك ويقبل قدمك ٠٠ الرخصة كلفتنى خمس جنيهات ٠

جلس حافظ دون أن يثير اهتماما وطفق يرقب ذلك الواقع المتصارع وانخرط فى معيناتهم ، وهم يصطدمون بحياة شائكة معقدة ٠ ٠ لفت نظره شيخ هرم جاء ليقاضى ابنه الجاحد ليستحق منه الانفاق والاعالة ٠ ٠ وبغى تريد أن تعيش من مهنة أخرى ، جاءته ليستخرج لها بطاقة شخصية جديدة تحت ستر عمل جديد ٠ ٠ وامرأة سمينة تزن نصفها حقدا على زوجها أو من كان كذلك تعمل لأن تكبلة بالأصفاد ٠٠ الدفع أو الحبس ٠٠ ومما طل حضر ليؤجل أداء ديونه للمرة الثالثة ، يسوف لعل الحق يموت أو صاحبه يموت ٠ ٠ وصاحب مقهى سعى ليخلى الرصيف أمامه من الباعة الجائلين ليحتكر المكان لنفسه ٠ ٠ وشيخ ورع ود لو يسجل فى قائمة مقرئى الاذاعة قبـل حلول شهر الصيام الكريم ليكون له فى التلاوة نصيب ولكل مجتهد نصيب ٠ ٠ وعامل فصل بلا سبب مقبول جاء ليسترد حقه وعمله ٠ ٠ وشاب جاوز سن الرشد حضر ليضع يده على ما ورثه عن أبيه ، وعمه الوصى يعده ويمنيه منذ أعـوام ٠

وأخيرا لمحه عبد الحميد فاتجه اليه وصافحه بحرارة وأجلسه جواره وقال « دقائق وأتفرغ لك ٠ ٠ تشرب قهوة ؟ » ٠

واستمر حافظ يرتشف مع القهوة ذلك الجمع المـائل أمامه ٠ هم الحياة بهديرها وضجيجها وصراعها ، وصاحبه المحامى فى خضم ذلك البحر اللجب يجدف لهم بوعوده ، يضرب بها المـاء يمينا ويسارا حتى اذا هىء لهم شاطىء الأمل أبرزوا له القروش والجنيهات فيخطفها منهم خطفا ٠

وهدأ المكان وأنصت المحامى لحكاية حافظ وبعد تفكير عميق علق « مثل هذه القضايا تحتاج الى مصاريف كثيرة » ٠

— تقصد الرسوم ٠ ٠ مستعد لها ٠

وبضحكة المجرب المحنك قال « ومعها تكاليف اقامة خبير فنى لفحص السلم » ٠

— الأمر لايحتاج الى خبير ٠ ٠ فالسلم مستهلك ٠

ـ لابد من خبير لمعاينة وكتابة تقرير بحالته ٠٠ ثم الشـــهود ٠٠ يلزمك شهود مستعدين بأقوال فى صالحك ولابد من التفاهم معهم ٠

ـ التفاهم معهم ؟ ٠٠ وعلام ؟

ـ ماذا يدفعهم لحضور جلسات المحكمة وتحمل المواصلات وضـــياع وقتهم ٠٠ لابد من تفاهم ومفهومية ٠

ـ وكم يكلفنى كل ذلك ؟

ـ خمسين جنيها كدفعة أولى ٠

ـ خمسة جنيهات ؟

ـ بل خمسون ٠٠ انك ستحصل على تعويض لن يقل عن مائتى جنيها ولن يضرك أن تصرف نصفه ٠

ـ لكننى لا أريد أكثر من قرش واحد كرمز لانتصار حقى ٠

ونظر اليه المحامى مليا ، ثم خلع نظارته السميكة ، ومسحها جيدا ، ثم أعادها الى عينيه ، وتفرس فيه لحظة ثم قال ساخرا « حقك ؟ ٠٠ وقرش واحـــد ؟ » ٠

وانفجر الرجل ضاحكا بعنف عصف بحافظ وشله عن الحركة ، أراد أن يجاريه فعجز ٠٠ أراد أن يفهم سر ضحكه فعجز ٠٠ وألمته سياط الهزء والسخرية فانتزع نفسه ومضى خارجا ٠٠ والسياط اللاذعة ما زالت تلهب سمعه ٠٠ فهرول حينا ومشى حينا حتى بلغ داره منهك الجسم ٠٠ مصدوم الخاطر ٠

رافقه السهد وبات مفكرا فى أمره ومحاميه ، انخدع فيه ومعه السذج الآخرين ،داعب أحلامهم وراقص أمانيهم على معزوفة من القانون هم بلا حيلة وبلا خبرة ٠٠ أو بخبرة غضة ٠٠ والأسنان اللبنية تشق اللثة فتصيب الطفل بالحمى لكن الطفل ينمو والخبرات تنمو لتمارس وظيفتها فى الحياة ٠

ارتاح لهذه الخلاصة وتوسدها وتهيأ للنوم ٠ لكن أنى له النوم وعقله النشط رمى وسادته وأخذ يجادله ٠٠ ما هذه التعميمات الهروبية ؟ ٠٠ انك تخلط ياصاح بين فئتين ٠ فئة طامعة تريد انتزاع ما يملكه الآخرون وتضيفه

الى ما لديها •• المسوف وصاحب المقهى والوصى والمرأة السمينة •• كلهم ابتغوا الاستحوذ والاستيلاء وفق قواعد وأصول قانونية والناس والمجتمع يتقبل هذا النوع من الأخذ • • أما الفئة الأخرى فهم أصحاب الحق المضارون•• وما سعوا لحقهم الا بعد أن هددوا فيه •• فتحركوا •• وطالما هناك عدوان فلابد من نضال • • وما دام هناك نضال فالحق يقام • • وطالما هناك حق مصان فالسلام يسود • • عدوان • • فنضال •• فحق • • فسلام • • متتالية متتابعة •

وظل يردد متتاليته حتى انتظمت أنفاسه على ايقاع همسه •• عدوان •• نضال • • حق • • سلام •

١٣

تجاوز حافظ بائع الفطير ولم يسمع تحيته الصباحية « نهارنا قشطة » صعد الدرج مسرعا ، لم يتجه الى مكانه المعتـــاد بل انحرف الى ممر جانبى وسترته المفتوحة تهتز بعنف كعلم بيد فارس يتقدم جماعة للنزال • • ودخل قسم المراجع القانونية باحثا عن زمليه بها وأرشدته اليه رأسه البيضاء وبادره قائلا « كنت أنتظرك منذ مدة » •

— أريد كتابا أو مرجعا قانونيا يوجهنى بخصوص حادثتى •

— لكل من وقع عليه اعتداء غير مشروع فى حق من حقوقه الملازمة لشخصيته أن يطلب وقف هذا الاعتداء مع التعويض عما يكون لحقه من ضرر • • المـادة خمسون •

— الى بهذا القانون •

وذهب الرجل ودخل عبد العال وسأل حافظا « ماذا تفعل هنا ؟ » •

— ابحث عن مسألة تهمنى •

— اتبع غيرك هذه الطريقة وما نالوا شيئا • • أنصحك بالتروى •

— انى أعرف ما أفعله •

— جرب الكلمة اللينة والعبارة اللطيفة تجد الآذان صاغية والنفوس صافية • • اهدأ ياحافظ •

ـ اهدأ وأنا المصاب المعتدى عليه ٠

ـ أين الاعتـداء ؟ ٠٠ ألست مسـتمرا فى عملك وتتـقاضى راتبـك فى موعده ؟

ـ والتحقيق الذى كنت عضـوا فيـه ٠ ٠ ألم تحملنى المسـئولية والاهمال ؟

ـ انك تجسم الأمر ٠ ٠ غايته انذار بسيط لن يضر ٠

ـ يا عبد العال يا مفتى ٠ ٠ ألا يعنى توالى الانذارات عن شيء يدبره المدير ؟

ـ ياشيخ هادن تهادن ٠٠ سالم تسالم ٠

ـ وساقى المكسورة ؟

ـ ألم تشف تماما ؟ ولا داعى لاثارة المتاعب ٠

ـ ولمن المتاعب ؟

ـ لك طبعا ٠

واقترب صاحبه المسن حاملا كتابا ، لكنه ما أن رأى عبد العال حتى ارتد للخلف وأخفى ما بيده ثم اتجه الى حافظ وقال « آسف لم أجد طلبك ٠٠ أظنه بالاستعارة »

ومضى حافظ حائرا ، ووجد نفسه فى قمقم مغلق وران على كل شيء ظلال معتمة قبضت نفسه ، وبات حقه القوى فى حاجة الى بعض الضوء والهواء لينتعش وينبض ويحيا ٠٠

٠٠ لكنى أرى الأيام والشهور تتراكم عليه ٠٠ تطمسه عن الجميع وعنى أنا ٠ ٠ ويتحول فى ضميرى الى ذكرى باهتة ، مثل تلك الكتب المرصوصة أمر بها كل يوم وكل ساعة لا أميزها ٠ كلها مجرد كتب ولا شيء غير ذلك ٠٠ وقد يضيع احدها فلا أدرك اختفاءه ولا أفتقده بل أعايش الفقد والضياع ويصير أمرا مألوفا فى شكل الحياة ٠٠ مثل أصحاب العاهات لا يلبثو ٠ حتى يتوافقوا مع عجزهم ويعتادوه ٠ ٠ حتى توقظهم صيحة طفل برىء ٠ ٠ تدهشه أو تفزعه صورهم فيصرخ ليعريهم على حقيقتهم المؤلمة ٠٠ صيحة طفل برىء فاضحة ٠٠ كما فضحتنى وأنا محتم بأعلى الشجرة كقط مذعور ٠٠ ومن أسفل

جمع من تلاميذ المدرسة وعلى رأسهم عبد الرحيم ذو الساعد الغليظ والقبضة القوية انزل ياجبان •• انزل ياعجل •• والطوب والطين •• كلها لم تفلح فى انزالى من مكمنى •• لكن صيحة طفل من قريتى •• استفزتنى لأهبط وأضرب •• وأنذرنى باخبار أمى وأبى وعلى الفور كنت على الأرض أهاجم عبد الرحيم واندفعت نحوه بنقمة شيطان مرير وبحقد مهان ممرور •• وأوقعته على الأ رض •• وانتصرت وأمنت وقضيت الدراسة بلا عدوان •• وكم كنت فى حاجة لصيحة الطفل البرىء يوم أن استكتبونى اقرار الثمانين جنيها • • وجاءه صاحبه المسن وقدم له الكتاب ونظراته المرتابه تدور هنا وهناك وقال حافظ « تصور جاء عبد العال ليساومنى لأتنازل عن حقى • • يريدنى أن أغير رأى » •

— ليس لأحد النزول عن حريته الشخصية • • المادة التاسعة والأربعون •

ورطبت عبارته حافظا فى يوم جفت فيه كل الآمال •

الفصل الرابع

١٤

هى شبه راقدة وبين يديها مجلة فرنسية زاهية • قدمها حافية وعكس بنطلونها الأسود نصاعة قطتها المتمددة جانبها •• ثم راديو ترانزستور يرسل موسيقى تداعب جسدها •• وعيناها عندما نهضت تستقبله عبرت بها مواكب من الفرح •• اللهفة •• الحيرة ثم قالت وهى محتضنة قطتها الوادعة •• « جئت لسماء طبعا ؟ » فوجىء بالسؤال وبنبرات العتاب ورد « مجرد درس واعادة قبل الامتحان » •

جلست أمامه وراحت أناملها ذات الأطراف الحمراء تغوص فى الفراء الأبيض وخاطبت قطتها « فأكره يابوسى لما كان يزورنا كل يوم ويحكى لى بكلامه الحلو ونأكل من طبق واحد ويعطينى نصف تفاحته ويقشر لى الفول واللوز ؟ • • » •

تململ قائلا « كنت مريضة وأردت أن أسرى عنك حتى تشفى » •

ـ أحيانا أظن أنك تعاقبنى بسبب ترك المدرسة .. وأنت تعلم أن بابا هو الذى منعنى .

ـ كان بامكانك الاصرار ومواصلة الدراسة .

ـ بعد أن سبقتنى سماء بسنة ؟

ـ ممكن الذهاب لمدرسة أخرى بعيدا عن أختك .

ـ لقـد كرهت الراهبـات والواجبات .. زهقت من أوامرهن والآن لا أدرى ما أفعله .

ـ أوجدى اهتمامات لك .

وزفرت زفرة حارة وقالت « واذا كان من اهتم به لا يشـعر بى ؟ » اشتبكت بحدقتيهامتعمدا ايقاظ عقلها لا عواطفها « اشغلى نفسك بالقراءة .. بالرسم .. بالكانفاه » .

عقبت بلا مبالاه « كنت أحب التصوير لكن الكاميرا تالفة » .

ـ والقراءة ؟

ـ تعجبنى قصص ديماس الكبير .

ـ أظنك كبرت عليها .. والأنسب أن تقرأى لغيره .. بلزاك .. راسـين .. أميل زولا .

ـ كرهتنى فيهم المدرسة .. وأفضل عليهم ديماس الأب وديمـاس الابن فى غادة الكاميليا .

لفها بنظرة مشفقة لم تخل من المرارة واحتجت « من ناحية بابا شاهدنى كثيرا أقرها وابكى » .

وبنفس الاشفاقة المرورة قال « ما قصدتك .. لكنك ذكرتينى بحال فرنسا مع هذين الكاتبين . الأول أغرقها بقصصـه المثيرة .. الفرسـان الثلاثة .. مونت كريستو .. عقد الملكة فانصرفت عن واقعها المتردى ، وأما الثانى فأبكاها سنين كثيرة بمسرحية غادة الكاميليا حتى لهت عن نابليون الثالث ولم تفق الا على الهزيمة المؤلمة فى الحرب السبعينية .. ثم كوميونة باريس » صاحت ضجرة « عمو حافظ مالى أنا ونابليون والحرب وكوميونة باريس .. أين حديثك الظريف وقفشاتك الضاحكة » ؟

ــ أريد أن أكبرك •

وبضحكة حلوة سخية وحركة بارعة سألته « ألم أكبر بعد ؟ » •

وبكل جدية استطاعها أجابها « أقصد عقلك وفهمك للحياة » •

ــ وكيف أفهم الحياة وأنا محبوسة هنا ؟ حتى النادى ممنوع •

ــ يخاف أبوك المعاكسات •

وبحركة عنيفة أطلقت قطتها •• « أحيانا أفكر تركهذا المنزل المقبض •• وأحيانا أحس بحاجتى للبكاء •• أو أبحث عن شخص أحدثه فلا أجد الا أن أغير ملابسى •• أخلع بنطلون لألبس فستان أو أرفع شعرى ثم أسدله » •

ــ الفراغ مشكلتك •

ــ لا أدرى لماذا أعيش •• ولا رأى لى فى حياتى •

كان فى كلامها فقد •• هوى به فى شدة سريعة الى القاع •• حملنا الحياة قصرا وتنتزع منا قصرا • شكوى أبى العلاء من وجوده ••وقال لها « ياخسارتك لديك حس مرهف لو تستفيدين منه » •

ــ أريد أن أعيش عمرى •

أقلقه منها بذور التمرد فى تربتها الخصبة فخففت عنها « هونى عليك •• قد أستطيع أن ألطف من آراء أبيك » •

وجاءت سماء تلهث بملابس المدرسة ، وما أن رأته حتى هللت ا « الحمد لله •• خفت أن تكون ذهبت •• المدرسة أخرتنا » •

ــ عقابا ؟

« أبدا •• درس اضافى عن النهضة الأدبية فى عصر لويس الرابع عشر » ثم ذهبت الى الداخل وقتربت يهيرة منه جدا حتى جفل منها جدا وسألته بنبرة رقيقة « أريدك أن تستخرج لى بطاقة من دار الكتب » •

ــ أنويت القراءة ؟

ــ لأجد ما أسألك عنه وتجاوبنى عليه •

وعادت سماء وقد أبدلت ملابسها بأخرى زاهية · واحتضنت كتابا وسألته لتستخلصه لنفسها وليؤثرها باهتمامه « لم أفهم المقصود من الوضع الخاص لمصر فى الدولة العباسية ·· والعثمانية » ·

وقطعت بهيرة الحديث « اتفقنا ياعمو على البطاقة » ؟

ــ طبعا وجهزى صورتين ·

وجرت تهز أعطافها فى مرح · والتفت هو نحو سماء وقال « مصر هى الدولة الوحيدة التي ضربت فى التاريخ سبع آلاف سنة متصلة » ·

اقتحمت بهيرة وقدمت له صورتها وتأملها « انها جميلة ·· لكن لا تصلح للبطاقة » ·

ــ انها من تصويرى ·

ثم ناولته أخرى وسألته « ما رأيك فى هذه ؟ » تحقق فيها وأدهشته اللقطة فسألها « ولماذا صورت عمال البناء بالذات » ·

ــ أعجبنى حماسهم وغناؤهم وهم يصبون الخرسانة ·

والتفت الى سماء وأراها الصور وعقب « حضارة مصر حضارة بناء وتعمير ·· لها شخصيتها الثابتة ·· الراسخة مهما ألم بها من خطوب » ·

وقدمت بهيرة صورة ثالثة وقالت « وهذه ساعة الغذاء » وأخذته فكرة الصورة وهمس « طبق واحد ·· عمل واحد ·· مصير واحد ·· كيان واحد ·· هذه هى مصر ·· هايلة يابهيرة ·· ممتازة » ·

احتجبت سماء وقالت « بهيرة عندى امتحان بكره ·· أف » ·

ــ **يعنى الدبلوما ؟**

ثم جمعت صورها ومضت راضية عن نفسها ملوحة له بيدها وبرأسها وقالت « عاوزها ٦×٩ » فضحك وعقب « صورتين » ·

ثم استأنف حديثه مع سماء « مصر هى أول من نمت فى نفسها عناصر الأمة وأول من نظمت نفسها كدولة وأول امبراطورية حققت نطاقا سياسيا وحضاريا حولها » ·

وحتى تزداد سماء ضيقا وزهقا جاء توفيق وصاح بمجرد رؤية حافظ. « أهلا ‥ أين كنت مختفيا ؟ » .

— غرقان فى القوانين .

اندهش توفيق وسأله « هل ستعمل بالمحاماه ؟ » .

— كلا ‥ لأحصن نفسى ضد المدير الظالم .

— الا يزال يلاحقك ويتقصدك ؟

— له فلسفة غريبة ‥ يعتقد أنه طالما الأمور تسير بهدوء وبلا ازعاج للسلطات فهو ناجح فى عمله ‥ فاذا جئت له بحادثة فلا أقل من تحقيق وتحديد للمسئولية .

— والله انه رجل ذكى فاهم شغله .

وتدخلت سماء « أتسمى الظلم ذكاء ؟ » .

قال الأب « طريقته هذه توصله وكيل وزارة » .

وأراد حافظ أن يطمئنهما « لا تقلقا على ‥ فأنا استعد له ولن ينالنى » .

حذره توفيق « لكن احترس منه ‥ هو ليس بالسهل » .

— على فكرة ‥ طالبتنى بهيرة ببطاقة لها من دار الكتب .

وقطب جبينه « ولم ؟ » .

— لتستعير وتقرأ وتشغل وقتها .

وضحك توفيق مقهقها وقال « لن يكون لديها فراغا بعد الآن » ثم أشار الى سماء « أريد أن أحدث عمك فى أمر هام » .

ولمت كتبها بغضب وخاطبت حافظا « سؤالى لم تشرحه بعد ‥ » .

وهز لها رأسه « ‥ حاضر ‥ حاضر » .

وبلهجة جادة بدأ توفيق حديثه الهام « تقدم لى شاب يريد بهيرة ‥ أبوه تاجر جملة » .

— وما عمل الفتى ؟

— مع أبيه فى تجارة الجملة .

ـ أى جملة ؟

ـ حسب الظروف ‥ جلود قطع غيار ‥ منسوجات ‥

ـ وما تعليم الفتى ؟

ـ وما حاجته للتعليم وهو كسيب وابن سوق ‥ بقدر يعيشها أحسن عيشة ‥ سكن فى الزمالك ‥ عربه مرسيدس ‥ الصيف فى المعمورة وشهر العسل فى لبنان ٠

ـ زمالك ؟ معمورة ؟ ‥ لبنان ؟

ـ ولقد وافقت مبدئيا ولا ينقص الا أن يشاهدا بعضهما ٠

ـ وما جدوى المشاهدة وقد قررت كل شىء ؟

ـ شكليات لابد منها ٠

ـ ولماذا لابد منها وهى شكليات ؟

ـ المودة التى يتمسك بها هذا الجيل ‥ حرية الاختيار ‥ حرية نعم ولا ٠

ـ وماذا تفعل لو تمسكت ابنتك بتلك الشكليات ورفضته ؟

ـ انك تخرف ‥ دخله المحترم لا يترك لها فرصة للرفض ‥ أنها ابنتى وأعرفها جيدا ٠

ـ مبروك مقدما ٠

ـ عقبى لك ٠

ـ متشكر ٠

ـ يارجل تزوج قبل أن يفوتك القطار ٠

١٥

والبسوها فستانا جديدا ، وجاءوها بمن صففلها شعرها . جملوها وحلوها وزينوها بأساور وأقراط وعقد به آية قرآنية حافظة من كل عين حاسدة .

الفتاة تسأل وعيناها تسأل وأختها تسأل .. حتى قطتها تموء لتسأل رد الأب باسما « لما يعجبك .. أحكى لك عنه كل شيء » .

وأتى فتى الفتيان . طويل عريض مثير ، قانط باسم معا . ورأسه الصغيرة لا تستقر على ذلك البنيان الضخم . أما أبوه ذو العينين البراقتين فقد جال بهما فاحصا الموجودين ، وملابسه البلدية الفضفاضه تضاعف حجمه . وكشف كمه الواسع عن رسغ غليظ طوقته ساعة ذهبية ثمينة .

حاصرا الفتاة بنظراتهما الفاحصة . وارتاحا بها قليلا على القوام المتسق . وابتسمت شفاتهما لذلك البريق المتلالىء من معصمها وجيدها واذنها واطمأنت اساريرهما لذلك الخجل الوجل .

دارت أكواب الشراب وبعدها دارت الحلوى ونشطت عبارات الترحيب والتلميح..زدتونا شرفا . الزواج سترة..تخيروا لنطفكم ان العرق دساس.. الخيرة فيما اختاره الله .. وتصافحت الأيدى وتماسكت فى حرارة على عبارة « ربنا يتمم بخير .. ربنا يتم بخير » .

وما أن خرجوا حتى أطلقت الخادم زغرودة مجلجلة .. أندفعت على أثرها سماء وشدتها من جلبابها وعنفتها « اقفلى بقك » .

بدا الأب فرحا وراضيا وسأل الواجمة « ما رأيك فى العريس ؟ » لم تجبه ونكست رأسها وشعرها وتصدت له سماء « لولا جلباب أبيه ؟»

هاج الأب « .. أنا سألتك ؟ » .

لكنها لم ترتدع وأردفت « يا بابا البنت منا تريد شابا له مركز بالمجتمع ومستقبل كبير وشكل مقبول » .

اندفع نحوها زاعقا « اخرصى .. اخرصى .. قطع لسب » لكن قبل أن يتمها كانت بهيرة على الأرض متخشبة متصلبة فى غيبوبة مظلمة حيث سيطر لا وعيها وصال وجال عندما فشل عقلها فى ابداء القبول أو الرفض .

حملوها الى غرفتها جسدا مهلهلا وبكاء الأم لا ينقطع « بهيرة بنتى ·· بهيرة بنتى » والأب حائر قلق عليها وعلى مخططه ·

وبين الدموع والحيرة حضر الطبيب ·· ثم حقنه فى الوريد وقرص بعد الأكل وآخر قبل النوم وحبة ثالثة اذا عاودتها النوبة وهدوء تام بلا ازعاج وبلا اثارة ·

١٦

استدعاه مديره على غير انتظار · قابله بابتسامة مرحبة · أخفى بهـا آثار ضيق قديم ·· قال له وهو منتش على حافة مكتبه « هل لك علاقة بأحد فى جريدة النهار ؟ »·

أخذ حافظ بالسؤال ولم يحر جوابا ·

ـ اتصل بى أحدهم وسألنى عن حادثه سقوطك ·

ـ ومن الذى أخبرهم بها ؟

ـ ليس هذا هو المهم ·· بل الروبرتاج عن دار الكتب ·· ثم حادثتك تأتى ضمنا ·· أقعد ·· أقعد أولا ·

وكانت المرة الأولى التى جلس فيها الى جواره واستطرد المدير « لست بحاجة لأن أذكرك أن تتحرى الدقة فى شرح حادثتك ·· بدون أى اضافات ··»

ـ أرجوك أن تعفينى من هذه المهمة ·

ـ كيف وقد طلبوا منى مناقشتك بالذات ·· ثم انى لا أحب أن يتقولوا على بأنى رجعى أقيد حرية العاملين عندى ·

ـ قد يكتبون كلاما لم أدل به ·· وتسىء الظن بى ·

ـ انى أثق بك وبذكائك ·· لولا ذلك الانذار وموضوع الثمانين جنيها لكنت من خير الموظفين ·· لكننى قد أعوضك بتقرير ممتاز ·

ـ كيف والتحقيق مازال جاريا ؟

ـ اثبـاتا لحسن نيتى سـأعتبر الحـادث قضـاء وقدرا وأرفع عنك المسئولية ·

ـ متشكر ·

وعندما هم بمغادرة الغرفة قال له « أريدك أن تضع ساقك فى الجبس عند التصوير » استدار نحوه نصف دورة وأكملها بسؤاله « أضعها فى الجبس مرة أخرى ؟ •• ولم ؟ » •

ـ أو استخدم عكازا •

ـ لكن أل ••

ـ على راحتك •

وأصبح حافظ فى غير ماحاجة لمجموعة القوانين التى استعارها ••وأعاد القانون المدنى •• والعقوبات •• والمرافعات الى المكتبة وهو يبستم ابتسامة متسائلة « ومن الذى اتصل بجريدة النهار وأوعز لها باثارة الموضوع ؟ » •

وأتاه الرد برقيا من ذات تفكيره « ومن غيرها •• فكرت فى أمرى وسعت الى صديقتها ضحى وأبيها المحرر البليغ » •

وعندما عاد الىمكان عمله فوجىء بيوسف الديب •• أقبل نحوه جاحظ العينين حاد الصوت « استاذ حافظ •• استاذ حافظ •• توفيق بك يريدك حالا •• بنته الكبيرة انتحرت وحالتها خطرة » •

ـ بهيرة ؟

ـ أنا عارف •• الكبيرة وخلاص •

وفى المستشفى •• الأب المنهار والأم الناحبة والأخت الدامعة والأبواب المغلقة ويافطة تصدم الهلعين وتنمى مخاوفهم « ممنوع الدخول بأمر الطبيب وكلمة من هنا وكلمة من هناك حتى ألم بالأسباب • قدم لها الأب المصر على عقد الخطوبة •• وعرض عليها نماذج من الحلى لتختار منها الشبكة •• فاختارت الانتحار ، ثم هبوط مميت وشحوب شديد وخرطوم طويل الى المعدة ومقيئات وحقنة فى الوريد وقرص بعد الأكل وآخر قبل النوم وحبة ثالثة اذا عاودتها النوبة •• وهدوء تام بلا ازعاج وبلا اثارة •

انفرج الباب عن فتحة ضيقة ، هرعت اليها الأبصار لتطمئن على تلك الراقدة تحت الملاءة • أن توفيق وتوجع « شفت ياحافظ •• شفت ما فعلته بنفسها وما فعلته بى •• أنا أبوها •• ما العمل وقد ارتبطت مع الرجل بكلمة ؟ »

كلمة ؟ أسرها حافظ لنفسه ثم نأى عنــه وانتحى مكانا على حافة الممر يرقب ويتــأمل ·· يرقب توفيق المتهــدل الأطراف والنظرات يعــانى أكبر اعتراض وأقوى تحد لارادته ··

ألم أحذرك ؟ ·· طالبتك أن تمنحها بعض العطف وأن تشعرها بالحنان حتى لا تفقدها فتجبرت كعادتك ·· عشت سنين طويلة لا تسمع الا فحيح الموافقة ولا ترى الا رؤوسا مطأطئة · · حان قطافها وكنت قاطفها · · لم تقل لك المسكينة نعم ·· ولم تفه بلا ، بل قذفتك بربيع عمرها الذى أردت أن تطوعه لمشيئتك وسقطت أمامك تتحداك فى غيبوبتها ؛ زعزعت بنيانك الذى أقمت عليه أوامرك ونواهيك · جردتك من سطوتك وجلست قعيد حيرتك ·· والآن تبــكى حالك وتنعى اتفــاقك عليهــا مع ذلك الفحل · اعطيته كلمة ؟ ابتلعهــا وأســترح وأرح · ثم أنت آيتهــا البــاكية · · لن تحرك دموعك شفقتى ·· ولو كنت أطلقتها صرخات فى وجهــه لمــا طغى وتكبر · لــكنك استسلمت له وامتثلت لرغباته طويلا ·· وقابلت بالرضا أفعاله ولو قاومته وتحملت نصيبك من رده وصده لخفت غلواؤه ·· ولخففت عن ابنتك فلا تواجه وحدها كل ضراوته وتصطدم بكل عتوه فهربت منه ومنك ومن الحياة كلها ·· لاتبكى ·· ولا تنظرى الى السماء ·

وحدق بتركيز قلق فى سماء وهى تنشج نشيجا متقطعا ·· مقطوع الأنفاس يهز جسمها الغض ·· أتبكين أختك أم تبكين نفسك ؟ لكن لا بأس به ليصهرك ويجلى ذهنك ·· لتتعلمين الغضب ولتتعلمين الدفاع عن مصيرك ·· ابكى فلا بأس ·· من البكاء ·

الممر طويل ، زاده طولا الصمت والانتظار · وضيق ، زاده ضيقا الشجن والانفعال وذكرته جلسته بحافة النهر والآفاق النقية · · شغلتنى أمورهم · كانت حياتى مع الكتاب عريضة · ارتادها بانطلاق · أحلق فيها بلاحــد ·· اســتحدثوا لى اهتمامات جديدة قيدتنى بهم كثيرا وأبعدتنى عن مألوفى زمنا طويلا · · لكن لا ·· آن لى أن أعود ·· كتبى تنادينى ·· النهر ينادينى ·· « حافظ · · حافظ » ·

ولم يكن ذلك الا صوت توفيق المجهد « نامت ·· صارت أحسن » قالها كحقيقة مجردة ، واستطرد « نامت ولاداعى لوجودنا » ·

عاد الى شاطئه الحبيب ومعه معدات الصيد • جلس صامتا وعينه معلقة بالشص • أخذته صفحة المـاء • وتراقصت أمامه الأمواج ساخرة من عقلانيته المتأسية • داعبته بلا رحمة • أخرجت له ألسنتها الحادة حتى اذا اقتربت منه أرتدت ملتوية على نفسها ضاحكة مكركرة •

ثم طفت الصنارة بلا شيء • • حتى السمكة هزأت به وقضمت (الطعم) دون الشص • أعاد الكرة واستمرت اللعبة وطفت الصنارة واستخفت به الأمواج ورمته برذاذها ثم تراجعت متلاعبة لترتمى على صدر النهر العظيم •

لم يطق تلك المداعبات والمشاكسات فسحب أدواته وعاد الى داره وهو أشد انسحابا الى قاع نفسه •

الفصل الخامس

١٧

انشرح صدر المدير بوصول الصحفى والمصور •• سألاه بعض الأسئلة الذكية وأجاب المدير اجابات تفصيلية عن البليوجرافيا •• والخدمة المكتبية والتراث القديم • ركز المصور عدسته على المدير • صوره بين العمال والموظفين ثم وسط المترددين على الدار ، ولدهشة حافظ صوره بين الأولاد • استدعاهم خصيصا ليظهر كمرب للأجيال القادمة ، ثم صوره ممسكا بمجلد أثرى ثم وهو واقفا بجوار تمثال على (باشا) مبارك •

أما حافظ وساقه فلم يشغل أى حيز من الاهتمام الا بمقدار جملة من سطرين •• عشر ساعات عمل متواصلة يوميا فى خدمة الشعب ومن أجل الشعب ، سببت الاجهاد والاصابة •• عبارة مثيرة ختم بها المدير حديثه القيم •

وأصبح حافظ من المقربين المرغوبين المرموقين • زادت حرارة التحيات واتسعت له الابتسامات مرحبة به متوددة له • جاءه عبد العال متقربا وزاره الصفتى متأسفا ومعتذرا • أتاه من همس له « مبروك مقدما •• سمعت عن مذكرة بترقية » •

واضحى قسم المراجع التاريخية مزارا يتردد عليه موظفى الدار يسمعونه عبارات المدح والتقريظ • وأحيانا يعاونوه فى رص الكتب وتنظيمها ونعتوه بالعبقرية والذاكرة القوية • • أنت مدفون هنا • • مكانك بجوار

المدير • انه فى حاجة لأمثالك •• انك تنتحر يارجل كف عن هذا الارهاق •• ارحم نفسك أطلب مساعدا لك واثنين من السعاة •• عبارات وردية وأيام خمرية تثمل وتطير العقول •

صار حافظ من قراء جريدة النهار بعد أن كان من المعجبين بجريدة الأنوار •• ودأب يبحث كل يوم عن المقال المنشود والأيام تمضى وهو يبحث وينقب •• حتى ملاحق المناسبات لم يغفلها •• الأيام تجرى وابتسامة المدير تذوى وتحولت الى نظرة متشككة وتساؤل مريب •• وراح حافظ يبحث عن الأسباب وأمدته المانشتات بالمبررات •

- استنبات نوع جديد من الترمس •
- ظهور فقس جديد لدودة القطن •
- مارديان ملك فنادق انجلترا يعجب بالطعمية المصرية •
- تشديد الرقابة على تسعيرة اللحوم •
- الغاء رخص الراديو •
- نظام محكم لمنع تسرب أسئلة الامتحانات •
- وصول فريق ريال مديريد الى القاهرة •
- انهيار مصنع الغزل بشبين الكوم •
- بدء مشروع انقاذ أبى سنبل •
- بدء مشروع لمحو الأمية فى عشر سنوات •
- أعرفى شخصيتك من حواجبك •
- مادة جديدة للقضاء على قواقع البلهارسيا •
- كتاب جديد كل ثلاث ساعات ونصف •
- اطلاق اسم على مبارك على حارة شق الثعبان •

وبهذا المانشت الأخير انفجر المدير وثار على جريدة النهار ومحرريها ومن يمت لها بصلة • وجاءوه بحافظ مكبلا بالجريدة وقبل أن يرتد الباب خلفه صرخ فيه « على باشا مبارك •• منشىء دار الكتب •• أول داعية للثقافة الجماهيرية •• تكرم ذكراه على حارة •• أين أقلام أصحابك بجريدة النهار ؟ » •

ارتج على حافظ وأخذ على غرة والجمته المفاجأة . صوب له المدير نظرة نارية وقد ظن به ظن السؤ خدعه ليفلت من الانذار والعقاب .. وابتسم له المدير فابتسم حافظ وما درى أنه يجهزه لعمل عظيم تنوء بحمله الجبال . حان أن ينفذه .. وأن ينفذه فيه .. ثم قال « هل يرضيك أن تتضاءل ذكرى على باشا مبارك الى هذا الحد » .

وتحمس حافظ « هـــذا خطأ كبير . . لن تتركه الصـــحافة يمر بلا تصحيح . . سيكتبون عنه باكر » .

— دع هذا الموضوع جانبا .. هناك ما هو أهم .

تنفس حافظ الصعداء وانتظر الأهم .

— تعلم أن محفوظات الدار بالقلعـــة بهـــا الـكثير من التراث الأدبى والمخطوطات التى لم تسجل أو تفهرس .. بالاضـــافة الى الـكتب المصادرة من قصور الأمراء والاقطاعيين » .

— فعلا .. تراث من الخطر أن يترك هكذا ..

— ولهذا فقد اخترتك رئيسا للجنة التسجيل والفهرسة .

— ســيادتك ذكرت للصحفيين أنك ستستعين بخبير من هيئـــة الأمم المتحدة .. ومن الأفيد أن ننتظره .

— وهل نشر الحديث ليكون حجة تتمسك بها ؟

— تأكد سيادتكم أنه لا علاقة لى بالحديث أو بنشره .

— لا تربط هذا بذاك .

— أريد أن أوضح لسيادتك أن خبرتى بقسم المراجع التاريخية أفيـــد للباحثين من العمل بال ..

— كل موظف يتصور أنه لو ترك عمله لتوقف وأصابه الشلل .

— حالتى خاصة .. أكاد أعرف كل كتاب وموضوعه .

— يستطيع أى موظف آخر أن يتقن عملك فى مدة قصيرة .

ورماه حافظ بنظرة ساخرة وشت بما يدور برأسه .

فنهره المدير « الديك اعتراض على هذا التعيين ؟ » .

– هو ليس اعتراضا ، بل ادراك لأسباب التعينات والتنقلات الجزافية التى تحدث بين الموظفين .

لم يدر حافظ كيف عاد الى محل عمله .. سائرا ؟ .. زاحفا ؟ سابحا ؟ .. لكنه عاد بحكم الممارسة وسبعة عشر عاما .. وقف أمام الكتب الصامته .. جال بنظرة عليها مودعا .

عشت بينكم بعقلى وفكرى ووجدانى .. وصرتم قطعة منى .. وتحتم الفراق .. ووجب البعاد عنكم .. عنكم جميعا .

الجبرتى .. هيرودتس .. ابن خلدون .. الرافعى .. جرجى زيدان .. جبيب جا ماتى .. غربال .. توينبى .. المقريزى .. كارلتون .. بيرك .. حتى أنت يا بلنت يا من دافعت عن عرابى أمام المحكمة العسكرية ثم خذلته فى كتابك عنه .

وتسللت يده الى بعضها وراحت أنامله تبثها الأشجان . . يرثيات بريئات .. حملتن الصدق مع التحريف والحقيقة مع التضليل . حملتن بها قهرا ولم يكن لكن خيار .. ولاخيار لى لأن أبقى أو أذهب .. مضطرلودأعكن بعد العشرة الطويلة . . سأذهب الى الدهاليز والأقبية حيث المجهول . . أعيش معه حتى اتعرف به ثم أبعثه الى الوجود بشهادة أو ببطاقة .. وينتقل من عالم الأموات الى عالم الأحياء .. بمجرد بطاقة أحررها له .. سأعتاد الظلام . سأنصت للصمت .. سأتعامل مع الأشباح .. أشباح الكتب وأشباه المراجع .. مهمة شاقة ابتدعها المدير العبقرى .. يغلف الباطل بالحق .. يغلف انتقامه بخشيته على التراث .

١٨

أخذ حافظ يرقى الطريق الملتوى فى حده ، وأنفاسه مقطوعة وأقدامه مكدوده ورأسه مشحونة والسور الشاهق على يمينه والبيوت الضئيلة على يساره . والى الاتجاه الهابط سالت ماء وتدحرج الحصى والتراب وثلاثمائة عام ويزيد .. الأسوار العالية شمخت منذ أزمان بعيدة ترهب البيوت الصغيرة .. فاحتمت منها بتمائم وسنابل قمح على الأبواب .. والنوافذ المرتجفة استندت الى الجدران المتهالكة .. ومشربيات اتسعت ثقوبها مع الفصول والسفور ورفرفت أمامها ملابس عجزت كل أنواع الصابون أن

تعيدها سيرتها الأولى • • وأسباط من الثوم أطلت للهواء والعراء • • ورائحة نفاذة لم تكن هى الخانقة بل تلك الأسوار العملاقة تذكر الناس بأصحابها الذين عاثوا فى الأرض فسادا وافسادا ثم أقاموا مساجد ومآذن اتجهوا بها الى السماء استغفارا واسترحاما ••

وهل سأمر كل يوم بهذا الطريق ؟ •• الكتاب المضنى كنت أستطيع أن أغلقه واتجنبه لكن هـذا الطريق سأصعده وأهبطه يوميـا •• فكرة المدير الشيطانية •

الطريق ما زال صاعدا • لم يسمح للأزقة والحوارى الجانبية أن تلحق به • هابته وتخوفته فتوارت ببيوتها وأهلها فى انحـدار شديد •• أرادت أن تتوارى عن القلعة وأنظار أربابها ومواكبهم الصاخبة •• ثم دالت المواكب وبقيت الأرصفة لتتوسدها •• وتنام عليها •• وتتسـامر عليهـا الجموع الحاشدة •

وعلى الجدران بقـايا شعارات انتخابيـة •• المسـاواة •• العـدالة الاجتماعية • وقديما كانت الاستقلال التام أو الموت الزؤام • • ودكاكين نحيلة بها باعة أشد نحولا •• وخبز وزحام شـديد •• وصـالون للحلاقة ، نادى ومنتـدى ينافس أى مقهى •• وأنوال قديمة قدم المحراث والشـادوف يعمل عليها شيوخ وفتيات وأطفال •• أما الرجال ففى المدينة الكبيرة •

ثم صيحات ونداءات وفريقان للكرة •• فريق المنشية وفريق الحلمية •• الألعاب مازالت تعتمد على المهـارات الفردية •• تسـتهوى المشـجعين وتثير حميتهم الى بطل • أى بطل ••

الطريق مازال يتلوى والكتل البشرية متحركة فى جوف منحنياته فى استرخاء الهبوط وعناء الصعود •• وأفريز لا يتسع للمارة فتلاصقوا • واختلط الصـغار بالـكبار ، كما اختلط المـاضى بالحـاضر على نفس الطريق الذى صعده •• صلاح الدين الأيوبى ونابليون ومحمد على ثم جورج وجونى وسميث من جنود الاحتـلال الانجليزى •• وفقدت القلعـة مغزاها ومعناها وآلت الى الصوت والضوء وأمست مزارا للسائحين •

الطريق مازال يتلوى وسرسوب ماء من حنفية عامة لا ينقطع حتى كونت مستنقعا جذب الأطفال • خلعوا النعال وشمروا الثياب وعبثوا فى المـاء مع صيحات وكركرة مغردة •• وجاءت عربة الرش • حصـان هزيل وفنطاس

كبير ورشاشات تجاهد لبث الماء فى خيوط مقوسة .. جرى خلفها الأولاد تاركين المستنقع للصغار .. والتفت الحصان نحوهم وهز رأسه ثم مال بها لأسفل ليسحب الصرع من يد الحوذى العجوز ليمنحه أذنا ليسرع فيجرى خلفه الأولاد ويمرحون .

١٩

ـ لم تتأخر أبدا حتى تلك الساعة .

بهذا همست الأم محملقة فى عقارب الساعة وهى تتجاوز التاسعة وجلست مع هواجسها « ما أن تطلبها صديقتها بالتليفون حتى تجرى اليها » رددت لنفسها قبل أن تنتزعها أقدام على الدرج ، فاندفعت الى الباب ثم ارتدت كسيرة تخشى مواجهة الساعة ، تلتهم الوقت بعقاربها بأصرار لايرحم .

امتلأت رأسها بالأوهام ، ومالت كفرع على جزع مثقل بالثمار واسندتها بيدها ، وكم ساندت ابنتها بعد محاولة الانتحار . أطلقتها من الأسر خفية عن أبيها . تركتها تزور وتزار ، وتذهب الى السينما معهن فى حفلات نهارية ، لم يلبث أن صارت مسائية بشرط العودة قبل الأب . ولكنه علم وصال وجال وهاجم وغاضب . وتغلبت فى الأم أمومتها على رهبتها فتصدت له بقوة حتى سلم ورفع عنها سطوته وأوكل اليها أمرها وحملها مسئوليتها ، أصبح لايتدخل أو يتداخل .

. وأصبحت الأم هى المهيمنة . لم تدع بهيرة تخرج الا بميعاد وبعد سؤال واستفسار .. ومع المد .. مد بهيرة تضاءلت السيطرة وانكمشت الهيمنة « وتكفى قبلة وارتماءة فى الأحضان المشوقة لتذوب كل معارضة فتضحك الأم وتنطلق بهيرة .. وادمنت الأم القبلات والأحضان واذا امتنعت الفتاة عن الخروج سألتها الأسباب .. مرض .. تعب والحقيقة أن الأم تبحث عن الجرعات والمسكنات .

ومع الغدو والرواح اشتدت الحاجة الى ملابس أنيقة وجميلة ، وأمها فرحة بالمهرجان وعرض الأزياء .. واذا تململ الأب استرضته الأم بكلمة ناعمة ولمسة حانية . . وأصبحت موضوعات بهيرة وسيلة لممارسة الأمومة ولممارسة الزوجية . وخفت التوترات وانضوى الجميع فى اطار عاطفى . . عدا سماء التى احتواها الكتاب ورانت عليها بلادة عاطفية مع وقدة ذهنية تتوهج فى وجود حافظ الذى قل حضوره . . هو الوحيد الذى أدرك طموحا وصارت تنتظر كلماته المشجعة وعباراته المرطبة .

أطبقت العقارب على العاشرة وأطبقت الظنون على رأس الأم وأخذت تولول « أين أنت الآن يابنتى ؟ » وعجزت دموعها المنهمرة عن أن تغسل مخاوفها ·· وبعد أن كانت مشحونة بالانذار والوعيد جاس فيها رجاء بعودتها ·· وعقارب الساعة الشرهة حولت هذا الرجاء الى أمنية بعيدة ثم الى احتمالات رهيبة وتوجسات مميتة « أين أنت الآن يابنتى ؟ » صيحة باكية جاءت بسماء مرتعدة وبنظرة الى أمها المخنوقة بعقارب الساعة أدركت المشكلة ·· بهيرة والغياب والعذاب ·· سألتها الناحبة « ألديك عنوان صديقتها أو حتى تليفونها » ؟

ذهبت سماء تبحث عن أختها بين أوراقها ومقتنياتها ·· دخلت غرفتها وفتشت المحتويات ·· هذه قصاصة من مجلة حواء ·· اسألونى ومشكلة غرامية ·· وأخرى باشعار نزار قبانى ·· لو أنى أعرف الحب خطيرا ما أحببت ·· لو أنى أعرف أن البحر عميقا جدا ما أبحرت ·· لو أنى أعرف خاتمتى ما كنت بدأت ·· ثم ورقة باعلان عن فيلم عشاق فى دوامة ·· وورقة حالمة اللونوكلمات عاطفية ·· أحبك أكثر من الحياة ·· أنت كل شىء وأنا بدونك لا شىء ·· أنت الحب والجمال والطهر والأمل ·· أنت ملاكى ·

وتوقفت سماء على الفور عن البحث وخافت أن يكون فى الأمر أكثر من رسالة غرامية وارتدت الى حواء واسألونى ·· الى الحائرة ب ت ·· صارحى أمك بالحقيقة ولا تخافى معارضة أبيك ·· أتركى لأمك اقناعه ومبروك مقدما ·

سقطت سماء فى تخمينات وهواجس مضنية ·· أضاءت كل الأنوار لتبدد الظلام الجاثم عليها وعلىفكرها ·· وخطف بصرها خطاب علىالسرير ·· وقبضت عليه متلبسا بجرمه ·

أعزائى بابا وماما وسماء

عندما تقرأون هذا الخطاب أكون قد تزوجت م ب سأمضى شهر العسل بالخارج · لا تقلقوا على · سأتصل بكم فى أقرب فرصة · قبلاتى ودعواتكم ·

تقوست سماء حتى لا تنزف من الطعنة · لكن الجرح العميق دمىأسئلة محيرة ·· من هو ؟ ولماذا سرا ؟ وكيف ، ومتى وأين ؟ ·· مسكينة بهيرة ·· مسكينة أختى ·· أختى ·· أختى ·

وانهـارت تبكى • وجاءت الأم الهلوعة • وما أن رأت سماء والدموع والخطاب حتى صرخت « بنتى • • انتحرت • • ابنتى ماتت » وسقطت على الأرض فاقدة النطق •

وجاءوا بالطبيب •• وحقنة فى الوريد وقرص بعد الأكل وآخر قبل النوم وحبة ثالثة اذا عاودتها النوبة وهدوء تام بلا ازعاج وبلا اثارة •

وهز توفيق رأسه •• لا ليفهم تعليمات الطبيب ، بل لينفض عن رأسه ما حدث وكل ما يتصل بالهاربة •• دار بنظراته المتجمدة التى لم تنم عن شيء هنا وهناك هربا من مواجهة الطبيب •• هربا من الجميع •• لكن نشيج سماء الخافت اصابة فنظر اليها ورأى فيها أمله الباقى •

بكى الأب مع دموع سماء •• بكاؤه على بكائها •• على بكاء بهيرة عندما احتواها فى صدره وهو يتسكع بشفته وكلماته على أذنها « مبروك يا عروسة• مبروك ياحبيبتى »

وأجابته بدموع أسالت الأصباغ المتثاقلة على أهدابها •• فرسمت على خديها حروفا سوداء •• تفهم ولا تقرأ •

وسأله حافظ المتأسى « ألا تريد البحث عنها •• الن تبلغ الشرطة ؟

ـ تحب تشرب قهوة ولا ليمون مثلج ؟

ـ الا تحتمل أن تكون وقعت فى يد محتال ؟

ـ أظن الليمون يرطبك ؟

وثار حافظ لهذا التجاهل المتعمد « ألا تعلم أنك مسئول عما حدث لها •• ألم تدرك أنك المتسبب الأول فى هروبها ؟ » •

وبعود ثقاب مرتجف أشعل توفيق سيجارة مرتعشة ثم نفث دخانا كثيفا حجب عنه الجالس أمامه ، واستطرد حافظ يشق حلقات الدخان « أترك لى مهمة البحث عنها وسأجدها •• أعدك بذلك » •

هب توفيق واقفا وقال « هل تعلم متى أسست بازار الأمانة ؟ » •

ـ ان شاالله يكون من مائة سنة •• ماذا يهم ؟

ـ أقصد انى انشأته قبل الزواج ٠

ـ وماذا فى ذلك ؟

ـ وبه أسست حياتى ٠

ـ لا أفهم ما تقصده ٠

ـ لأنك لم تنشىء محلا مثله من العدم يسرى داؤه فى دمك وعقلك ٠٠ ويؤرقك فى صحيانك ونومك ٠

وأدرك حافظ ما يرمى اليه فنكس رأسه أسفا له وأسفا عليه ٠٠ وعلى مشاعر الأبوة المتلاشية ٠

الفصل السادس

٢٠

ما أن فتح البـاب حتى صدمه نحيبها ونشـيجها ، اتجه نحـوها ليواسيها ، فالجرح من جرحه والوجيعة واحدة وان اختلفت فى الشدة ٠٠وهم ببضع كلمات ليخفف بها عنها لكنها أوقفته بوجه حزين كليم وعينين ألهبهما البكاء فالتزم الصمت ٠

لمحته من خلال دموع تجمدت لرؤيته ، وتشبثت حدقتاها به وحاصرته بنظراتها ٠٠ وكأن قد غاب غيبة طويلة وهجر المنزل ومن بالمنزل ٠

ورمضت عيناها باتهاماتها الصـامتة ٠٠ ومسح جبينه ٠ مجرد حركة بسيطة أراد أن يؤكد بها تماسكه ، وجمع شتات نفسه وسأل « أين سماء ؟ » ٠

فسألته متحرشة « وأين بهيرة ٠٠أليست هى الأخرى ابنتك ؟ » ، انتفض وهمهم ودمدم « قلنا لا داعى لهذه السيرة » ٠

ـ خلاص ٠٠ خلاص رميتها ٠٠ خلاص ضاعت ٠

تركها وهى تلاحقه « بنتى ضاعت ٠٠ ويمكن ماتت ٠٠ ماتت وأنت السبب » لم يتحمل سياطها فخرج وصفق الباب صفقة شديدة ٠

لازمت الأم غرفتها المظلمة ، كرهت الضوء والنور ، أغلقت النوافذ والأبواب ٠٠ لتغلق على نفسها أحزانها ، احتضنت صـورة الغائبة تناجيهـا وتستعطفها العودة « ارجعى يابنتى ٠٠ ارجعى لأمك المسكينة ٠٠ ارجعى مع زوجك ٠٠ ومع ابنك » ٠

فقدت الاحساس بالزمن وانقطعت عن الليل والنهار ، لا تدرى الصباح من المساء ، نهارها دموع وليلها كوابيس وهموم •• وامتدت أشجانها فشملت كل المنزل •

لم يتحمل توفيق ذلك الجو القاتم وهرب •• هرب منها ومن نفسه وتحول الى وعاء له أنف وفم وعيون واحتياجات نهمة •• احتاج اسمه سمنت مائدته بالأطعمة •• مهرجان ترقص له الأحشاء والأمعاء •• ولم يطق العزلة فكانت له رفقة وصحبة •• اختارها دائما بيضاء طويلة هيفاء ذات استدارت وانحناءت وصوت رخيم وشعر طويل •

وسأم الوجوم فاجتلب المرح بمازح سريع الفكاهة ساخر اللسان • ورغم كل ذلك لم يستطع أن يقضى على الغبار الخانق الصاعد من أعماقه • وراح يستهلك انفعالاته فى متجرة بين البيع والشراء • طارد نوع محدد من التحف• الهندية والمصرية القديمة ، جمعها من السوق ، حرمها على الآخرين وركزها فى متجره ، اصابته لوثة الربح الكبير فرفع الأسعار لا يقبل فيها مساومة أو مجادلة •• أثمانه باهظة وكلماته قاطعة •• والعجيب أنه كلما غالى وتشدد أقبل عليه المشترون •

وصار نهاره بيعا وشراء وأمسى ليله لهوا وهزلا ومجونا،قاوم أرقالليل وحارب أشباح ابنته بأكبر قدر من الضجيج •• خشى الصمت والهدوء •• ولا يكف حتى يسقط نائما بملابسه فتتركه جماعة الصخب والطرب متسللة قبل أن يفيق فيطالبها بمزيد •

أما سماء فأحسن ما كانت تفعله ، أن تستقر بغرفتها ، تمسك بكتاب تكتم به ذلك العويل الصاعد من أعماقها ومن غرفة أمها • ربطت عينيها وعقلها بالحروف والسطور تقرأها مثنى وثلاث لتستوعب المقصود ، حتى اذا امتنع عليها الفهم قذفت بالكتاب بعيدا •• وتلجأ الى مجلة أو جريدة تتصفحها وتقرأها حتى الاعلانات الصغيرة لتتصل بعالم الأحياء •• ولتنأى عن عالم الخواء ، عالم المنزل الكئيب •• ولا ينتزعها منه الا ضحى ، زميلة الدراسة •• تأتيها لتتسامر • لكن الظلال القاتمة لا تسمح لهما الا بهمس عن المدرسة والمدرسات والامتحانات •

وضاقت الفتاة بذلك الكدر المقيم وراحت تتحاشاه ، لا تجسر على مواجهة موضوع أختها وأنين أمها • لكن وخزات الضمير مؤلمة فتتحامل وتعزم وتدخل

اليها لتأسوا جراحها تذرف دموعا تشاركها بها ثم تعانقها عناقا شديدا ٠ تريد أن تمتص منها معاناتها ٠٠ والأم أشد حرصا على عذابها لاتفرط فيه ٠٠ وتهدأ سماء بعد جرعة الألم وبعد أداء قداس البكاء فى محراب الأحزان ٠

وأحيانا يأتيها شعاع خافت يتحسس الخطى بين الظلمات ويقول لها حافظ « هى المسئولة ٠٠ لو كانت أدت نصيبها من مقاومته لو كانت عودته الانصات للرأى الآخر ٠٠ لما صارت كلمته هى العليا وارداته هى النافذة ٠٠ ولما تحولت أختك الى عود جاف ظمآن مال لأول قطرة ندى حانية » ٠

لم تتحمل سماء انتقاد أمها فدافعت عنها « وماذا كنت تريدها أن تفعل ٠٠ تتركه وتتركنا له ؟

— لا أعنى هذا ٠٠ كانت وبنفس امكانياتها البسيطة تستطيع أن تجعله ألين وأقل تعنتا ٠

— لا فائدة من كل هذا الآن ٠

— والأفيد أن تدخرى نفسك للامتحان ٠٠ حتى تلتحقى بالكلية التى ترغبيها ٠

وشحنتها كلماته بطاقة وهفت الى مستقبل أرحب وأمل متجدد وأقبلت على الكتاب بوعى متفتح ، وعلى أمها بقلب هادىء ٠٠ مفعم بالأمل ٠٠ الأمل بعودة الهاربة ٠

٢١

— لا أنا زعلانة جدا ٠

— مبروك أولا ومتأسف ثانيا ٠

— كنت أنتظرك أول من يهنئنى ٠

— ما عطلنى عنك الا مخطوط طلب منى سرعة انجازه ٠

— أيشغلك لدرجة ألا تحدثنى بالتليفون ؟

— فكرت فى ذلك لكنى فضلت أن أؤخر تهنئتى لاقدمها لك بنفسى ٠

أطربتها عبارته فابتسمت له ابتسامة الصفح ، حملتها أنسام الصيف الخافتة ٠

التفت الى الجالسة في صمت تتابع العتاب والاعتذار بضيق ، ولم تفلح نظرتها الودودة في اخفائه • قطب جبينه واستفسر « ضحى ؟ » •

أجابته بهزة من شعرها قبل رأسها فأردف « أقول مبروك ؟ » •

أجابت عنها سماء « مبروك •• لكن ال •• »

ــ أظنه المجموع هادم كل نجاح •

ــ تصور بسبب درجتين في المجموع تتحول رغبتها من قسم اللغة الفرنسية بكلية الآداب الى كلية دار العلوم • وأضافت ضحى « ومعقول ياعمى بعد عشر سنوات دراسة بالفرنسية أتجه الى اللغة العربية » •

ــ أين والدك صاحب القلم السيال ؟

ــ كتب مقالا طويلا وقدم شكاوى بلا فائدة •

ــ ربما رضى بالأمر الواقع لشغفة باللغة العربية •

ــ بالعكس لم يقتنع بما قدموه له من أسباب •• دراستى اللغة العربية حسب المنهج العام •• والعقل الاليكترونى •

ــ أرجوك ياعمى أن تذهب الى بابا وتتحدث معه بهذا •

ــ زرعوا فى الأذهان أن ذلك العقل لا يخطىء •

ــ لو تقابل بابا وتحركه لمقال جديد •

ــ وما الفائدة وقد استبد بتفكيرهم فاستبدوا هم بالناس •

ــ أرجوك ياعمى •• سماء ساعدينى •

ــ سأذهب اليه •• ليس بسبب موضوعك فلا بأس من دراسة اللغة العربية •

ــ واللغة الفرنسية التى اتقنتها •

ــ اجعليها لثقافتك الخاصة •

وتدخلت سماء « وهل هذا معقول ؟ » •

ــ طالما هناك اعتقاد بذلك العقل الذى لا يخطىءفعلينا الخضوع لاجاباته المقدسة •

ــ هذا ظلم واضح •

ـ وعلينا أن نسلم مصائرنا له ليقررها لنا .

انفعلت سماء بهذا التدفق فقالت وقد اشتعلت حماسا « ليتك تعمل فى الصحافة .. مكانك فى تحرير جريدة وليس هناك بالقلعة .. ليتك تحاول » .

وخشيت ضحى أن يضيع أمرها بين تلك الأمنيات « لكنى أريدك أن تناقش بابا لتقنعه بالتحاقى بكلية الآداب » .

ـ وما جدوى اقناعه .. لا فائدة .. فقد قرر العقل الاليكترونى ولاراد لقراره .. هناك فلسفة منتشرة عنه .. استرح ودعنى أفكر لك .

وقالت سماء « وما المانع فى أن تستريح ؟ » .

ـ الراحة شيء .. وتعطيل عقولنا عن التفكير شيء آخر .. وقد يصل بنا الأمر لأن نعتاد تعطيلها وبالتالى نفقد القدرة على التميز والاختيار .. ويعلو رؤوسنا الصدأ .

وتمنت سماء « لو تعمل فى الصحافة » .

وسألت ضحى بانزعاج « وأين أنا من هذا كله ؟ .. أين مشكلتى ؟ » .

ـ سمعت باسماء .. انها ضاعت مع مشكلتها بمنطق العقول الاليكترونية .

ـ أحسن شيء تذهب معنا الى بابا بالجريدة .

وشارفوا الدار ، واجهه سيراميك مسطحا تكبيرة من الزجاج توحى بأن كل ما بالجريدة واضح للعيان فى جلاء .. ثم حروف « النهار » بارزة ضخمة تتناسب مع ضخامة البنيان .. ثم موظف استعلامات أنيق ، لامع ، حتى ابتسامته ، الذى تجاوز بها عن سؤالهم عن وجهتهم عندما رأى ضحى .

ارتقى بهم المصعد فى نشاط ليبلغ الدور العاشر .. لماذا كلهم يفضلون الأدوار العليا .. طلبا للهدوء ؟ واعمال الفكر ؟ .. أى فكر ؟ وهم جادون فى اقامة عقل اليكترونى .. يستقدمون من لا يرحم ولا يجادل .. وقد يكون أعتى من رئيس التحرير .. فقد يرفض مايكتبون ويخطىء بياناتهم . أمره نافذ وقوله باتر وعليهم أن يسلموا له تسليما .

ولم يتوقف حواره الذاتى الا على يد تصافحه بحرارة ·· ومفاجأة سارة « مبروك ياضحى خلاص قبلت بكلية الآداب لكن بجامعة الاسكندرية » ·

ذهلت الفتاة ذهلتين ·· ذهلة القبول ·· وذهلة الاسكندرية ، وأردف الرجل ضاحكا « ووعدت بتحويلك الى جامعة القاهرة فى أول فرصة » ·

ولم تسترح لهذا الوعد وسألته « يعنى أروح اسكندرية الأول ؟ »

— اطلاقا ·· شهادة طبية مؤكدة ·· وينتهى الاشكال ·

وسأله حافظ « هل ثبت خطأ العقل الأليكترونى » ·

أجابه الرجل بكل ثقة « أنه لا يخطىء أبدا » ·

— وما سر التعديل من اللغة العربية الى اللغة الفرنسية ·

— فتحوا فصلا جديدا بالكلية ·· وكانت فرصة ضحى ·

نهضت ضحى وقبلت أباها وأنستها فرحتها كل شىء فظلت متعلقة به وهو سعيد بها وبتحقيق أمنيها وقالت سماء « مبروك » ·

وهم حافظ مغادرا « استأذن ·· يبدو أن ما جئت بسببه أصبح غير ذات موضوع » ·

وعلى الفور قال الرجل مخلصا « أى خدمة ياسيد حافظ ·· أنا مستعد لأى خدمة » ·

ضحكت ضحى وقالت « عمى حافظ حضر معى ليقنعك بكتابة مقال عن احتمالات خطأ العقول الاليكترونية » ·

شد الرجل من قامته وهز رأسه هزة المدرك لمشاكل عصره وقال « أننا لا نستطيع أن نتقاعس لحظة عن الدخول فى عصر الأليكترونات ، لقد تخلفنا من قبل عن عصر البخار وعن عصر الكهرباء ، ولقد كلفنا هذا التخلف كثيرا ومازال يكلفنا الكثير ، لكنا مطالبون الآن وعصر الألكترونات يشرق فجره على الدنيا أن نبدأ الفجر مع الذين بدأوه ·

ولم يدر حافظ لما ذكره الرجل بمدرسه فى شبابه وهو يتلو بحماس قصيدة مشهورة « مكر مفر مقبل مدبر معا كجلمود صخر حطة السيل من على » ·

الفصل السابع

٢٢

أقام توفيق حفلا بمناسبة مرور خمسة وعشرين عاما على افتتاح متجره « بازار الأمانة » انتهز الفرصة لدعوة بعض المعنيين بشئون السياحة والآثار والفنون وغيرهم من الهيئات المتعددة الأنشطة كما وجه الدعوة لبعض الملحقين الثقافيين بالسفارات الأجنبية ولم ينس استضافة بعض زملاء المهنة ٠

لم تكن هناك بطاقات دعوة ورسميات ٠٠ هكذا أراد توفيق ليضفى على الحفل طابعا مضيافا شرقيا ، نجحت فكرته وامتلأت داره بالمدعوين من كل فج ، وراح يستقبل ويحى ويصافح وينحنى ويعتدل ويلثم الأيادى الناعمة باحترام لم يخل من متعة خافية ٠

صاحبت سماء أباها حينا ولاصقت حافظا حينا ثم جالت هنا وهناك كثيرا ٠ سارت بين المدعويين تختال فى ربيعها الفاتن وتتيه بنظرات الاهتمام والتساؤل عنها ٠ ولقد سعدت كثيرا عندما اعترضها أحدهم وسأل « أهذه ابنتك ياتوفيق بك ؟ » ونظر اليها أبوها مزهوا فهى ابنته ٠٠ وابنه الذى كان قد تمناه وقال « سماء سلمى ٠٠ سلمى على ابراهيم بك » ومدت له يدا تتهادى ٠ لاعن تردد أو خجل ، لكن عن معرفة بسلوك الآنسات الفضليات فى مثل تلك المجتمعات كما قرأته بالكتب والروايات ٠

الحديث خافت يدثر الموجودين بغلالة من الرقى ٠٠ لكن كلماتهم المنتحلة والتى بذلوا جهدا فى استجلابها قشعت الغلالة وأظهرت المضمون ٠٠ وحتى ايماءات الرؤوس المؤدية للتحية بدقة وبدرجات محسوبة ٠٠ لم تفلح أن تضفى على صورهم شيئا ذا قيمة ٠

ولم تتواضع الابتسامات المرسومة وتتحول الى ضحكات وقهقهة الا بعد أن دارت الكؤوس وماج المستنقع وصاربحرا لجبا ٠٠ ونشطت الأفواه الفاغرة تمضغ وتلوك الكلام والطعام معا وبوتيرة واحدة ٠

وراح حافظ يشرب سأمه بكوب من العصير اللاذع وجاهد ليستسيغ مزازته وتمنى، ما اقترب منهم ٠٠ بانت له تفصيلاتهم والقشور والبثور والبقع ،

استوقفت نظره دائرةتوسطها رجل وقور . ما أن أخرجسيجارة له حتىأسرعت اليه أياد كثيرة حملت ولاعات أنيقة على طرفها نار متلاعبة ، نظر اليها الرجل الوقور معجبا بألسنتها الموقدة ، ثم اصطفى منهاواحدة جذبها نحوه وأشعل بها سيجارته وعادت الأخريات مؤملات فى سيجارة تالية ، وقال الرجل الوقور « أمامنا هذه السنة أعمال كثيرة لم يحدث مثلها فى تاريخ التنقيب عن الآثار .. سيمتد نشاطنا الى منطقة مساحتها مائة ألف فدان فى صقارة وقفط والأقصر .. وأتوقع اكتشافات مثيرة من الأسر الثالثة والثانية عشر والتاسعة عشر » .

وعقب الرجل صاحب الولاعة « شىء عظيم جدا » .

ـ وهذه الاكتشافات لا بد أن تنشر أنباؤها فى الصحف وتتردد فى الاذاعات العالمية وبالتالى أفواج من السائحين ثم دخل كبير بالعملات الصعبة ، وأتوقع أن تصبح السياحة الدخل الثانى بعد القطن .

قال صاحب الولاعة « وبلا دودة وبلا مبيدات » .

استطرد الرجل الوقور « آلاف من القطع الأثرية والتماثيل وسنعرضها فى مزاد عالمى وسنبيعها بالعملة الصعبة » واعترض توفيق « عملة صعبة ؟ .. ومن أين لنا بتلك العملة ؟ » ، لم يجبه الوقور واستمر « كما قلت لكم ، أمامنا أعمال كثيرة لم يسبق أن حدثت فى تاريخ الحفريات » .

ومرة أخرى تدخل توفيق « وماذا عنا نحن الذين أمضينا عشرات السنين نخدم البلد فى تجارة الآثار والتحف .. ثم العمال من أين يعيشون بعد أن تكسد تجارتنا .. يجب أن يكون لنا نصيب من الاكتشافات » .

ـ هذه الأمور لن تغفل عنها اللجنة الدائمة للآثار .. وأعتقد أنها ستقرر حصة لكم .. اطمئن ياسيد توفيق » وانبرى صاحب الولاعة « سمعت أن سيادتك مرشح لرئاسة الهيئة العامة للبحث عن الآثار ؟ » .

أجاب الرجل الوقور بلهجة متواضعة « كلنا جنود فى خدمة الوطن » وتدافع الجميع نحوه يهينئونه فى حرارة واخلاص ، وتقبل الرجل تلك التهانى وكأن كل شىء أصبح أمرا مؤكدا .

واقترب توفيق من حافظ وهمس « بارك .. بارك له .. بسرعة » ، لكن حافظ لم يتحرك وقال « كفاية تهنئتك » .

وقطع حديثهما دخول سماء المضطرب ، انحنت بين المدعوين الذين تفرقوا

منزعجين وتبعثروا فى خوف يرقبون الأرض ، وفزع توفيق الى ابنته يجتلى الأمر وجاءه نداؤها قبل أن يصل اليها « بوسى ·· بوسى ·· تعالى هنا » لكن القطة انقلبت الى حيوان شرس ، كشفت عن انيابها وأبرزت مخالبها تهاجم كل من تصادفه ، وساد الذعر والهلع وعلا الصياح · ونشط الخدم فى مطاردة القطة حتى أعادوها الى الداخل ·· لكن بعد أن أصابت البعض بجروح وخدوش ·

عاد توفيق الى الحفل يحمل ابتسامته على وجهه وقد أمسك بزجاجة كولونيا قدمها للمصابين ليطهروا الجروح مع اعتذاراته وأسفة ·

ولما فشلت كلماته وابتساماته فى ازالة التوتر جاء بالراقصة ودفعها بين الجمع · · وفى طريقها اليهم مرت بحافظ عارية تهتز وتتلوى وترتعش·· ومعها كل شيء أمامه · · ملتو · · مهتز · · مرتعش · · مجرد من الهيبة والقوة والفطنة والقدرة والتألق ·· كل شيء بدا حاسرا عاريا · واستطاعت الراقصة بتثنياتها المعربدة أن تمحو كل أثر للقطة اللعينة ·

استمر الحفل حتى ساعة متأخرة من الليلة · · هكذا أوردت النبأ صحيفة النهار ضمن أخبار المجتمع ذاكرة أسماء المهمين من المدعويين · وتم لتوفيق ما أراد وأضحى سعيدا راضيا الا من تخوفات بسبب الاصابات التى أحدثتها القطة ·

٢٣

انطلق صوت فاجع « بوسى · · ماتت » وهرع على الأثر توفيق ومن خلفه سماء · وقف الجميع حول الجثة البيضاء ، وأخذ كل يتفحص ذراعه وساقه باحثا عن الاصابات · · وشريط طويل من الاحتمالات بما يمكن وما ينتظر يمر برأس توفيق فيحرك تلك المخاوف التى حاول أن يدفنها منذ الحفل ·

ـ مصيبة سوداء لو كانت مريضة ·

ثم نظر الى ابنته التى اجابته بثبات « لاتخف يابابا ·· أنا فاكرة جيدا أن بهيرة حصنتها ضد السعار » ·

وسألتها ليطمئن « أنت متأكدة ؟ » ·

ـ لاتخف يابابا ·

واستراحت عضلات وجهه لدرجة أنها سمحت لابتسامة بلهاء أن تتبدى ·· لكن الجثة البيضاء الراقدة أمامه تفجر فيه الذعر والهلع ونضح جبينه عرقا باردا فعاد يسأل « أنت متأكدة ؟ ·· نفسى أصدق وأرتاح » ·

واصطحب مستشار الملمسات الى الطبيب المختص الذى قال له « أولا يجب التأكد أن القطة ماتت بمرض الكلب » ·

ـ وكيف ؟

ـ هات جثتها للتحليل ·

وأسرع مع حافظ عائدا الى المنزل وصاح هناك « أين القطة · · بوسى بسرعة · · »

أجابته الخادم « رميتها » ·

ـ رميتيها ؟ اين ؟ ·· أين ؟

ـ فى صندوق القمامة وقد حضر الزبال وأخذها ·

لم ينتظر أن تتم عباراتها وجرى الى الشارع وخاطب حافظ « ضرورى نجدها · · وبأى شكل » ·

سأل البواب فأشار الى طريق جانبى · اندفع بعربته وراء الزبال · سأل كل من صادفه « هل رأيت عربة قمامة ؟ »

وطاف بالشوارع الجانبية والمجاورة والمقاطعة · توقف لدى كل ناصية وتلفت الى كل اتجاه · · وأخيرا لمح العربة وقد سحبها حمار · وفى لحظة كانت عربته جوارها ·· تكاد مقدمتها أن تمس رأس الحمار المذعور فتحرك للفرار · لكن توفيق لدهشة حافظ كان أسرع منه وأمسك به وأوقفه ·

وارتقى عربة القمامة وانحنى متدليا فى صندوقها العميق · · وتسابق رباط عنقه (السولكا) مع يديه بحثا عن الجثة الهامة ·

واقترب حافظ وقد صدمته حركات توفيق وهو يفحص المخلفات ويعبث بيده فى بقايا بطيخ وشمام وأوراق وقطن وخرق بالية وزجاجات فارغة · · وأشياء أخرى كثيرة لكن بلا قطة ، وبدون بوسى ·

واشتد اضطراب توفيق فقال له حافظ « هدىء نفسك ·· الموضوع بسيط لا يستحق كل ذلك العناء ·

التفت نحوه غاضبا « بسـيطة ٠٠ أنها مصـيبة كبـيرة ٠٠ ماذا أعمل مع مدير السياحة ومفتش الآثار ٠ ٠ ومدام قطان ٠ ٠ ومدير مكتب العمل ٠ ٠ ولا الملحق الفرنسي ٠ ٠ ماذا سأفعل ؟ هل أخبرهم بأن القطة ماتت ؟

ولاح على مسافة الفتى صاحب العربة حاملا مقطفا منتفخا ٠ ٠ وقف مذهولا لا يستطيع أن يفسر ما أمامه ٠ ٠ أفندى ٠ ٠ بل بيه ٠ ٠ ومعه بيه كبير جدا يعبث فى القمامة ٠٠ أنه يبحث عن شيء ثمين ٠٠ ساعة ذهبية ٠٠ محفظة عامرة ٠ ٠ قرطا ماسيا ٠ ضحك الفتى مؤملا فى مكافأة ضخمة ٠ ٠ مكافأة تحوله من زبال من حامل قمامة الى بائع متجـول ٠٠ اتسـعت أمانى الفتى واحلوت الدنيا فى عينيه ٠

اقترب وسأل « أى خدمة يابيه ؟ » ٠

رمقه توفيق بنظرة مبعثرة ثم تمتم « بوسى ٠٠ القطة بوسى » ٠

ــ بوسى ؟ ٠٠ بوسى اية يابية ؟ » ٠

ــ قطة ماتت ورموها فى الزبالة ٠

ــ قطة ؟ وماتت ؟

أنهارت أحلام الفتى لكنه وجد فى الأمر ما يسرى به عن ضياع آماله « وناوى تعمل لها جنازة وخميس وأربعين ٠

ــ أريد جثتها للتحليل ٠

ــ ولازم بوسى يعنى ٠٠ أجيب لك قطة غيرها ؟

ــ لازم بوسى ٠

والتفت الفتى الى حافظ « عندنا الواحد يكشـف بدل جاره العيان ، وجدع يسجن بدل المعلم وقطة ميتة لا ينفع بدلها قطة ثانية » وشـد صرع الحمار بعنف وصاح « شيء يا حمار الفقر ياوش النحس » ٠

وبقى توفيق فى مكانه يتـابع العربة ومعهـا أمله ٠٠ وحافظ يرقب الصورة كلها منذ أن كان توفيق بالحفل يلثم الأيادى الناعمة باحترام ٠

٢٤

وقفوا فى الطابور فى انتظار التطعيم ٠ كانت تجربة جديدة لهم خاصة لسماء وأبيها فلم يسبق لهما الأصطفاف والانتظار ٠

وجاءت ممرضة غضوب متبرمة . استعرضت الواقفين بنظرة خاطفة وما تبينت زيادتهم عن اليوم السابق قالت « كان أحسن أشتغل فى مستشفى ولادة .. زغاريد وشربات .. مش قطط وكلاب » ودخلت غرفة التطعيم وأتخذت مكانها أمام مائدة بيضاء مجهزة بالأدوات وصاحت « نمرة واحد يدخل » .

نظرت سماء الى حافظ متسائلة عن سر الغضب فقال « لا أدرى سببا للغضب لكنى ألاحظه فى كل مكان به خدمة عامة » . ثم مسحت الجمع المصطف بنظرة خاطفة وسألته « هل كل هؤلاء عندهم قطط وكلاب ؟ » وضحك حافظ وهو يجيب « الشوارع مليئة بالكلاب والقطط الضالة »

ومن نهاية الصف انطلقت صيحة « انت ياولد يابتاع المؤسسة أدخل الصف أو امش من هنا » ووجد حافظ ولدا يتوارى به ويتخفى عن الممرض المسئول عن النظام . أشفق حافظ عليه ومنحه ابتسامة هادئة ، ردها الولد بأخرى مترددة . سأله حافظ ليسرى عنه « بأى مؤسسة أنت ؟ » .

— مؤسسة المطرية .. أمى تزوجت بعد وفاة أبى وسلمتنى للمؤسسة .

— مرتاح هناك ؟ .

— مبسوط جدا .. أشرب اللبن وآكل اللحم والخضر .. والأبواب مفتوحة وأخرج فى أى وقت .. ولدى بنطلون وقميص .

ونظر حافظ الى جلبابه فتضاحك الولد وعقب « أصل المشرفة تشيلها عندها حتى يوم التفتيش .

— ولم ؟ .

— لنلبسها أمام المفتش .. كل شىء يجب أن يكون نظيفا .. العنبر .. السراير .. الورشة .. ولا نستخدم الا عينا واحدة .

— عين واحدة ؟ .. أى عين ؟

وسر الولد لجهل حافظ وسذاجة سؤاله فقال « عين واحدة فى دورة المياه حتى تبقى العيون الأخرى نظيفة » .

وسأله حافظ بعد فترة « هل آلمتك الحقنة ؟ » .

— أحيانا .. واذا كنت خائفا هات تذكرتك آخذ الحقنة بدلك .. ؟ » .

ـ وماذا يدفعك لذلك ؟

ـ أستطيع بتذكرتك أن أخرج من المؤسسة بعد أن تنتهى مدة تذكرتى .

وارتبك الولد تحت نظرات حافظ المتشككة فى كلُّ ماروواه ... وأراد أن يبرر سلوكه وقوله « أبلة المشرفة هى التى حذرتنا اذا سألنا غريب نقول ما أخبرتك به » .

ـ كأنك لا تخرج أبدا ؟

ـ أحيانا .. أذهب لزيارة أمى مع المشر فالاجتماعى .

ـ ولماذا يصحبك ؟

ـ أنه قريب أمى .. ودائما أذهب معه وهناك يعطينى قرشا لألعب فى الحارة ولما أرجع أجدهما مبسوطين جدا .

ـ وماذا تتعلم بالمؤسسة ؟

ـ القراءة والكتابة والنجارة .. لكنى أحب النجارة .

ـ ولم ؟

ـ أعرف أقطع الخشب وأمسحه وكثيرا ما يعجب المعلم بشغلى ..
واذا وجدنى تعبان يأخذنى تحت أبطه لأجلس جواره .. واذا عاقبنى فأنه يقرصنى ويشدنى من اذنى لكن بخفة .

وانبعث نداء قطع كل حديث « أنت يانايم .. نمرة تسعة » وتنبه الولد وجرى مرتبكا الى الممرضة وانتفض وهى تغزه بالابرة فى بطنه وقد غاظها تلكؤة .

وتقدم الثلاثة اليها ولما تبينتهم طلعت بابتسامة عريضة وبعبارة مهذبة خاطبتهم « اتفضلوا هنا » ثم قادتهم الى غرفة داخلية وشرعت تحرر التذاكر الطبية « الاسم والعنوان لو سمحت » .

ـ سماء توفيق الحملاوى ٦ ش النباتات .. جاردن سيتى .

ـ توفيق الحملاوى ..

ـ حافظ عبد المعبود .. ٤٣ ش السد الجوانى .. السيدة زينب .

وعقبت « لاداعى لوقوفكم فى الطابور بعد ذلك .. تهمنى راحتكم ..

اتفضلى عنـدى يامدموزيل خلف البرفان •• ارفعى المـلابس •• الله •• حاجات جميلة جدا •• مستوردة طبعا •• لاتخافى شكة صغيرة •• شفتى ؟ •

توفيق بك اتفضـل •• أستطيع الذهاب للمنزل فى حالة المرض •• يهمنى راحتكم وأنا فى الخدمة ••

الاستاذ حافظ •• اتفضل • تعرف اننا جيران » •

غادروا المستشفى وقد تأثر كل بما صادفه • سـماء أخـذت بالتجربة وأدهشتها كثرة المصابين من غير اصحاب القطط والكلاب •• وعلق حديث ولد المؤسسة بذهن حافظ وترك عليه علامات •• أما توفيق فشارد •• فى بيداء ما يحتمل أن يلقاه من مدعويه خاصة المهمين منهم •

٢٥

أصطحبها معه وقد حمل أدوات الصيد احتفاء بانتهاء التطعيم • أراد أن يختتم تلك الفترة الرتيبة بذكرى طيبة تبقى عالقة بذهنها وتمحو أثر المشوار اليومى الى المستشفى والممرضة الشرثارة •

اختار حافظ مكانا قصيا يشرف على النهر •• ويتسع صدره عنـده له ولها •• وللجميع ، وقف يجهز للصيد وسماء الى جواره غصن من أغصان الربيع • يداعبها الهواء ويجذبها من شعرها فتخلصه من يده العابثة بلفتة ناعمة • صارت جزءا من المكان • اندمجت فيه بحواسها وقلبها ••واحتواها حافظ بنظرة كاملة ثم رمى الشص الى النهر • استحث كل مهارته ليأتيهـا بسمكة •• أكبر سمكة بالنهر •• ليقدمها لها •• ليريها براعته وخبرته ••

•• لو أغوص فى الماء وأضرب واحدة كبرى بسهم وأصعد بها وهى تتلوى بالحياة وأطرحها أمام قدميها •• وقطرات المـاء المتساقطة منى تعلن لهـا انتصارى ••مثل رجل القبيلة الذى يتوغل فى الغابة ولا يعود الا بوعل يرميه أمام سمرائه • يبهرها بصيده ويفتنها به فترقص له رقصة البطولة والقوة • لمـاذا أرتد الى المنطقة البدائية منى ؟ هاهى ترقص برأسها وعينها وثغرها وثوبها وقدميها •• هل ترقص لى ؟ أم للمكان والهواء والانطلاق ؟•• لمـاذا أنسحب بها عشرة آلاف سنة ؟ الى الغابة وانسان الغابة ؟ الأهرب بها ؟ وممن ؟ ولم ؟ •• لأفر بها من الحاضر الذى يحدد لنا المعايير والمكاييل

ويطبحنا بأفكار مقننة ·· انها مازالت ترقص مثل عرائس النهر ·· بل هي ترقص له ·· لم ترقص لى ·· ولن ترقص لى ·

وجاوره رجل قوى البنيان · كشف عن صدره وساعديه المفتولة في تحد ثقيل · جاء ومعه كثير من الأدوات ومقعد وسلة أنيقة وآلة صيد حديثة وحقيبة وترموس للماء المثلج ·· إنه ينوى قضاء وقتا طويلا ·· نهارا كاملا ·· هو ليس هاويا عاديا ·· وضع أدواته بترتيب خاص وجهز بكرته واختبر الخيط ·· انه من النوع النايلون المتين ·· ويمتد مئات الأمتار فى عرض النهر ·· سمرته وحشية تنبىء عن صياد أرب ·· ثم تلك الصنانير الكبيرة تستطيع الأمساك بأضخم أنواع السمك ·· أضخم مما تتحمله صنارتى ·· لقد جذب أنظار سماء ·· من البديهى أن يثير اهتمامها ·· ملابسه ، حركاته ·· نظامه الدقيق ·· خاصة وهى أول مرة تشاهد فيها الصيد ·· لكن العبرة بما يخرجه من المـاء ·· لأصبر وأرى ·· لأصبر وأرى ·

رمى الرجل الأسمر بصنارته الى مسافة بعيدة أغاظت حافظ وارتجفت غابته بيده وضحكت سماء جذلة منتشية لرؤية ذلك المتحدى القوى ·· وفكر حافظ أن يستعرض بعض مهارته في رمى بالشص الى المـاء لـكنه خشى أن تخذله صنارته الصغيرة ·· فابتسم لسماء وباسمته بدورها فى مرح ·

ساد السكون وطال مداه ·· الرجل كالصخرة الصلدة لا يفصح عن شيء ولا يبدى الا حركة هادئة يلف يد البكرة رويدا رويدا ، أو ليزيح قبعته للأمام وللخلف ·· وحافظ يراقبه مراقبة طيور البحر لسمكة قد تشرد الى السطح فتلتقطها بمنقارها ·· وسماء منفعلة بالمباراة الخافية التى لم تعلن عن نفسها وان فاحت رائحتها ·· ترمق حافظ بعض الوقت وتتابع الرجل الأسمر جل الوقت ·

ركز حافظ انتباهه على صيده ·· لكن الأمواج سحبته الى عدة أيام خلت وقد عاد بسله فارغة ··

يومها كان التيار شديدا ، والأمواج عالية ، وهرب السمك الى جحوره ولم أستطيع صيد شيئا · أمر يحدث لأمهر الصيادين ·· مالذى دفعنى الى النهر ذلك اليوم وأنا أعرف شدة الهواء ·· ؟ ·· هى ·· نعم هى ·· أشعرتنى صحبتها اليومية وحيويتها الفياضة بجدب حياتى وضياع السنين ·· كان الحوار بيننا متصـلا وامتزاج الفكر مضـطردا ·· وصرت أتمنى مشـوار المستشفى لأصحبها وأخرج بها من منزلها وهى معى وحدى ، ورغم قصر

المسافة الا أن أشراقتها التى كانت تطل بها على ، حولت اللحظات والطريق والأرض والسماء الى متعة وبهجة ٠٠ واختلط على أمرها لم أستطع أن أحدد كنهها منى هل هي صديقة ؟ هل هي زميلة فكرى ؟ ٠٠ هل هي أنيسة وجدانى ؟ ٠٠ هل هي أمل خافت لا يجسر أن يبزغ ؟ هل هي شعاع فى وحدتى المعتمة ؟ لم أحدد مكانها منى ولم أحدد مكانى منها ٠٠ لكن بدون تحليل وتعليل صارت أقرب انسان الى ٠

وفجأة توتر كل شيء ٠٠ خيط الصنارة بيد الرجل الأسمر ٠٠ وعضلات وجهه ٠٠ ونظراته ويداه ٠٠ وحافظ أكثر توترا ٠ اهتزت الغابة فى يد الرجل بعنف ومعها اهتزت أنفاس سماء ٠ وبدأ الرجل متحفزا مترقبا ،

أنه ولا شك خبير ، أراد أن يثبت الصنارة فى فم السمكة فجذب الخيط بقوة ثم أطلقه لها ، ليستنزف دمها وجهدها دون أن ينهك نفسه ٠٠ لكن السمكة تناضل نضال الحياة بشراسة وقوة ٠٠ انها من النوع الكبير ، ياله من رجل محظوظ ٠٠ لكن لولا أدواته الحديثة ما استطاع أن يمسك بها ٠٠ لأنتظر وأرى فقد تقضم الخيط بأسنانها الحادة ثم نفلت الى النهر ولا يبقى له الا الخيبة ٠٠ لأنتظر والعبرة بالنهاية ٠٠ لكن ما لها لا ترفع بصرها عنه ٠٠ انها لا تسمح لخصلة من شعرها أن تحجبه عنها فترميها للخلف بعصبية واضحة ٠٠ انى أتعذب ٠٠ ليتنى ذهبت الى شاطىء الجسور على الخليج الهادىء ٠٠ لكنني طمعت فى سمكة كبيرة من عرض النهر وها أنا تحت رحمة ذلك المتحدى ٠٠ هل أدعوها للذهاب ؟ سترفض قطعا ٠٠ فقد استحوذ الرجل على اهتمامها ٠

يبدو أن مقاومة السمكة فترت ٠٠ ها هو يجذب الخيط برفق وحذر ٠٠ يعرف ما يفعله وهاهى تنساب له مستسلمة ٠٠ تظهر وتختفى بين الأمواج ٠٠ انها أكبر مما توقعت ٠٠ سوداء ٠٠ نعم سوداء ٠٠ قرموطية غالبا ٠٠ صنارتى مازالت تبحث عن سمكة ٠٠ ياله من نحس ٠٠ ألم أكن أولى بهذه السمكة لأتلقى انفعالاتها وحماسها ٠٠ هاهو يسحبها بهدوء ويقين ٠٠ ركز كل حواسه وانتباهه عليها ٠٠ انها تقترب ٠٠ ولونها تحول الى الفضى ٠٠غريبة ٠٠ ليست قرموطية بل من القاروص ٠٠ نوع نادرا ما يتوغل فى النهر بل يفضل المصب عندمشارف المياه الملحة ٠٠ أنه محظوظ بقدر ما أنا منحوس ٠٠ دائما لا أنال ما أتمنى الا بعد جهد جهيد ومحاولات شاقة ٠٠ لابد لى أن أبذل وأكابد لادرك ما أريد ٠٠ حتى لو كان ما أريده سمكة ٠٠ مجرد سمكة ٠٠ ما هذا ؟ ٠٠

ان لها شوارب طويلة أذن فهي ليست قاروص بل ثعبان المـاء ٠٠ ثعبان فعلا ٠٠ وسنرى مباراة جميلة ٠٠ فهـو خبيث مكير يتظـاهر بالاستسلام حتى يتم تخليصه من الصنارة ووضعه بالسلة ٠٠ ويتظاهر بالموت وتسكن حركته وما أن ينصرف الصياد عنه حتى يتسلل بهدوء عائدا الى النهر ٠٠ لأنتظر وأرى ٠٠ وقد أضحك أخيرا ٠٠ وأضحك كثيرا ٠٠ صنارتى مازالت خالية ٠٠ لايهم ، لأتابع الثعبان اللئيم ٠٠ سماء مازالت تراقبه بامعان يخنقنى ٠٠ أين انسان الغابة ٠٠ أريد حرية لأنطلق بها الى المـاء وأريها الجرأة والجسارة واستخلص اهتمامها وبريق عينيها لى ٠٠ لى وحدى ٠

ها هى شوارب الثعبان تبدو واضحة ٠٠ انها طويلة ٠٠ طويلة جدا ومتشابكة ٠٠ بل وكثيرة جدا ٠٠ لا ٠٠ لا يمكن أن يكون ذلك ثعبانا ٠٠ ماذا أذن ؟ ٠٠ أعشاب ؟ ٠٠ أعشاب أنها أعشاب ٠٠ هاها ٠٠ هاها ٠٠ هاهاها أعشاب أعشاب ٠٠

واتجهت اليه أربع عيون ٠٠ صوبت اليه ٠٠ اثنتان ناريتان كادتا أن تحـرقاه ٠٠ واخرتان منزعجتان آسفتان معاتبتان ، وأدتا فيه كل نازعة للضحك ومحت منه كل ميل للسخرية والشماته ٠

لم يتحمل نظراتها فجمع أدواته فى صمت ودعاها للعودة وقد غرق فى خواطرها وأجتر انفعالاته ولاك أفكاره ٠

الفصل الثامن

٢٦

رفع حافظ بصره عن الكتاب فى تثاقل وأرسله بعيدا الى لاشيء ٠٠ الى الجدران الكالحة ٠٠لم يستوعب شئا مما قرأ ٠٠ كل ما بداخله وحوله وأمامه مهتز ، مضطرب ، ناقص عجز عن أن يتم ما يبدأ ٠ اذا أمسك كتابا ضرب بين صفحاته شاردا ٠٠ ثم لا يلبث أن يعزف عنه الى غيره وهكذا ٠

رمق تلك الكتب العديدة والتى لم ينه واحدا منها ٠٠ شعر بشيءماينقصه ولا يستطيع أن يجزم به ٠٠ وكيف يجزم أو يقطع وهو مبعثر مشتت ٠٠ حتى عمله الذى تفانى فيـــه تركه ٠٠ عمله الذى أحبه وعشـــقة كل العشق مله وضاق به ٠

ولم يكن المكان وظلمته هو السبب ·· لم تكن رائحة العفن وعبث الفئران ولا الهوام الجائلة هنا وهناك هي سبب قرفه وضجره ·· وتحولت أمامه أكداس الكتب المصفرة والمخطوطات المهلهلة الى جثث ورفات أولى بها القبور ·· لا أن تبعث من جديد فلا ينفخ لها فى الصور ·· ولا أن تحيا وهى رميم ·····

رباه لماذا أنا على هذه الحال ؟

لماذا هذا الشك والقلق والحيرة ؟

لماذا هذا الجفاف ؟ :

لم يعد هناك ما يهزنى ويثيرنى

أرفض كل نازعة لعمل أو حركة · أرفض الضحك والبكاء · لا أشعر بالجوع أو بالعطش ·· لماذا ؟ ·· لماذا ؟ ·· هل مسنى جنون الرفض ؟ هل هو بداية الانفصال عن الحياة ·· أم بداية عدم الاقتناع بجدواها؟هل كرهتها؟ هل بت لا أريدها ؟ لم يكن لى منها الا السعى و الدأب والكد ·· حياتى عمل وعمل وعمل ·· أما الأمل فقد جنى عليه التأمل ·· التأمل فى كل شيء ·· لفهم الظواهر واستقراء النتائج وادراك المدلولات ··

وطفا على السطح أمل ·· أمل قريب وعسير ·· وأمان أكاد ألمسها ولا أمسكها ··قربها يعذبنى ·· ليتها كانت بعيدة ومستحيلة ·

ليتها كانت بعيدة لكنها وفدت متأخرة جيلا كاملا جاءتنى ترفل فى حنايا شبابها وفتنت بجمالها الذكى · أولتنى اهتمامها وأحطتها بعطفى ، فصارت متعتى وبهجتى ·· جعلت لأيامى شذى من عطرها وصار للزمن نضارة ربيعها · يقربنى لها شعاع من وجدانى ويدنينى لها عذب كلامها ورفاهة حسها ·· فأدركت سر شقوتى ويبسة حياتى ·· هى لى ترنيمة لا تملها الأذن ·· وفتنة لا ترتفع عنها العين ·· وفكرة لا ينقطع عنها العقل ·

جاءتنى متأخرة جيلا وفصل بيننا بلا رحمة ·· تعلقت بها وأشلاء وجدى متناثرة فى أعماقى لا أدرى كيف ألمها لأعيد تركيبها ·· رباه انى أحس بالانفصال ·· أحس وكأنى ذات هادئة مسالمة عايشت الحياة فى منطقة راكدة ·· وذات اخر ىترفض السلام والسكون وتتطلع الى الحياة وهديرها وضجيجها ·

وناداه زميله « حافظ ·· حافظ »

لم يلتفت اليه ، فهزه بيده وقال « حافظ ، عندى لك هديه ·· تحفه

ثمينه .. كتاب السلوى والنسيان فى رسالة الغفران » وردد غير متنبـه رسالة الغفران ؟ ومالى بها » ؟

— كتاب مجهول المؤلف .

— وماذا تريد أن أفعل به .. انى تعب ولا أستطيع عمل شيء .

— ألا تود قراءته ؟

— كلا .

— حسبتك من محبى أبى العلاء ؟

ووضع الزميل الكتاب أمامه ومضى ، تأمله حافظ وتنازعته حالة التوقف الملمة به وفضول شديد . وعبثت أصـابعه بأوراق عبثـا مترددا .. وهمهم متذكرا ما كان قـد قـرأة « رسـالة الغفران ؟ .. جنة الغفران ؟ .. جحيم الغفران ؟ .. ولمـاذا بدأ بالجنة ولم يبدأ بالجحيم .. وان منكم الا واردها » ونحى الكتاب جانبا متحاشيا لقيـاه ، لـكنه لم يستطع التخلص منه أو من أسئلته المحيرة وعاد الشيخ يلح على خاطره كما كان يفعل به منـذ سـنوات مضت .

وتصوره فى داره لابسا خشن الملابس ويتناول أقل الطعام وينام على حشية عجفاء مثله .. « ولمـاذا كل هذا العذاب .. ؟ أجهدت نفسك بما لا يطاق .. وجشمتها كل شاق .. وحرمت عليها كل المتع .. ثم أكثر من مائة كتاب ؟ »

— أمليتها لأشعر انى أحيا .

— وأين هى الآن ؟ .. ضاع معظمها وفقد .

— يعزينى عن فقدها ما بقي منها خاصة رسالة الغفران .

— ولماذا تؤثرها على غيرها ؟ .

— هى أقربها الى مشاعرى .

— تقصد عقلك وفكرك .

— بل مشاعرى .. عشت فيها أحلى سنين عمرى .

— ظننتك لم تذق الا المرارة ولم تعايش الا المكابدة .

— عانيت الكثير من شرور الناس وآلمنى فساد العامة والخاصة وتصدع

الحق وزيف الواقع فانسحبت من الدنيا بعد أن عز الأمل فيها ولجأت الى الحيـاة الأخرى •• وملأت جنتى بما تشـتهى الأنفس •• حور مقصـورات فى الخيـام لم يطمثهن انسى قبلهم ولا جان • وخمـر لا يصدعون عنها ولا ينزفون وأنهار من عسل مصفى •

— كأنى بك أردت أن تعوض ذلك الحرمان الذى فرضته على نفسك •

— ولو أدركت زمنى لأشركتك معى نزهاتى ورحلاتى هناك بين هضاب الفردوس والجنان • ولنازلت الأدباء والشعراء قضايا الفكر ولنادمتهم على القوافى والمنظومات •• ولتهـذبت أشواقك المـكبوتة والتأمت جراحك ولتحررت من عواطفك المشبوبة •• لكن لا فائدة •• فأنت فى غمة •

— أى غمة ؟ •• فسر •• أوضح •• أرجوك •

وسقط منه الكتاب وأطرق •• وبعد الخلادة قصيرة أمسك بالقلم وشرع يدون ما راق له وكتب « حديثى معه » واستغرقه ذلك بعض الوقت وكثيرا من الجهد •

وقرأ ما سـجله من خواطر •• ورغم أنهـا لم تكن المرة الأولى له فقـد أدهشته كتابته •• وجد فيها صورة أمينة لما انطبع على شريط خيالاته ، وأنس لشعاع خافت يجاهد ليشق طريقا فى خفايا نفسه الحائرة •

٢٧

اختفت السماء بتجمعات متتالية وافدة من السحب البيضاء والقاتمة • أضاعت الزرقة الصافية وأتت باكفهرارة مع لذعة باردة ، وتساقطت الأوراق الصـفراء مع نداء الريح لها بمصـاحبته وتسـاقطت خواطره تنوء بأفـكاره المتصارعة •

عاهد نفسه بتسكين عواطفه والنأى عن طيفها ، ووضعها بمكان لا يصبوا اليها به • وامتنع عن مناقشة أمرها منه وأمره منها وكمن كمونا عميقا • لم يعد ينمى آماله ولا يجدد أحلامه وحفظها جميعا فى جوف صائم زاهد • حاول وأفلح واتجه الى قلمه ووجد فيه منفذا لأشجانه وآلامه •

يفصح للسطور عما يعتمل بداخله • يبثها الأشواق وينفث فيها الوجد ويبنى قصورا لم تطأها قدماه •

لكنها تطارده بشئونها ومعنياتها فيترك القلم لينشغل بأمورها . وآخرها شاب تقدم للزواج .. مهندس بأحد المصانع .

حسن .. حسان .. حسين . لا يهمنى الاسم انما يقلقنى شبابه وحيويته واعتداده بنفسه .

وقد ترضى به هربا من بيتها الكئيب والأب الغائب وآلام الباكية .. لكن كيف تترك أمها وهى بتلك المحنة وليس لها الا دموعها ؟ وفيم العجلة وهى مازالت طالبة ؟ تشغل نفسها بالخطبة ثم بالزواج وتضيع السنة ؟ أو تحمل فى عام الليسانس وتضطر لملازمة طفلها .. ويذهب كل ما حفزتها عليه وحثثتها لنيله من دراسة وتفوق .. علمتها كيف ترتب أفكارها وتنمى مداركها .. فانطلقت شخصيتها فى تألق حبيب .

ياصديقة فكرى وأنيسة خيالى .. كيف تذهبين وترحلين ؟ .. لن أتحمل ولن تتزوجيه .. وما سلطتى لأمنعها ؟ .. أنها حرة .. حرة بمصيرها ألم أحدثها بذلك كثيرا حتى تخلصت من قبضة أبيها .. بأى ضمير أقيدها بارادتى . لقد حذرتها من المتقدم الأول . كان طبيبا أرادها زوجة له . كان تحذيرى رهيبا وحاسما ، وتقبلت اعتراضى بثقة كاملة .. فهل أستطيع أن أعترض مرة أخرى ؟ .. وقد تدرك سر اعتراضى المتتالى ؟ .. قد تشعر بدبيب الشغف فى أعماقى وترى وميض التوق فى نظراتى وتكشف ما أخفيه عنها ؟

لكن ذلك المهندس .. لا يصلح لها .. سخيف جدا .. لم يكف عن التشدق بخبرته عن الماكينات والمحركات وآماله فى ورشة صغيرة .. ورغم حديثه السمج فقد أنصتت اليه باهتمام ، بل وقدمت له الحلوى أربع مرات واختفت بعض الوقت لتصلح من زينتها .. عندئذ اشتعلت غضبا وتعمدت النظر الى الساعة لأنبه أباها .. لكنه ظل بلا حراك وبلا فهم .. والغريب أنها لاحظتنى وأرضاها حنقى وازدادت اشراقا وجمالا .. وأكثرت من السؤال وأصاغت السمع لاجاباته المملة ولم أحتمل وكدت أن أترك المكان لولا أن تذكر أبوها ميعاد أنشطته الليلية فأبدى ما ينهى الجلسة وخرجت على الفور.. سترضى به .. الم تكن قد اقتنعت به فعلا .. ليتها تتزوج وأرتاح ولم لا أذهب وأهنئها لأنتصر على نفسى ؟ واطفىء بيدى شعلة قلبى .

ضحكت تستقبله وفحصته بعين ثابتة ثم قالت « فيم غيبتك .. لك أسبوع مختف » وعقب متماسكا « وهل هناك جديد يستدعى العجلة » ؟

ابتسمت له ابتسامة من ذلك النوع المحير الذى يحمل ألف معنى ويدير الرؤوس •

أسرع مغيرا موضوع النقاش « وأين بابا » ؟

ـ أنت أعلم بمكانه منى •

ـ لم أره منذ الحفلة •

ـ وسميتها حفلة ؟

ـ ولم لا ؟ وهى حفلة البداية •• بداية النهاية •

ـ أترغب أن تتخلص منى بتلك السرعة ؟ تريد أن ترمينى معه فى الصعيد •

رأى فيها شيئا لم يعهده •• حلاوة تميزها عن غيرها •• لكن هذا الامتياز كان يتلاشى عندما يتذكر دربه •• درب الأربعين

وسألته بخبث « وما رأيك فى ضيف حفلتنا » ؟

ـ ليس لى رأى فيه •• وليس لى أن أبدى شيئا •

ـ ولماذا ؟

ـ ليكون لك حرية الاختيار •

ـ لكن لى حق طلب النصح منك •

ـ لم أكون فكرة محددة عنه •• لكنى لاحظت اقتناعك به •

ـ كيف تقرر أمرا أنا نفسى لم أبت فيه بعد ؟

ـ أحيانا لا يفهم المرء نفسه لكن ما يفصح به وجهه دون أن يدرى أقوى من كل شىء •

ـ وهل بدا منى شىء محدد ؟

ـ كاد وجهك وعيناك أن تنطق •

ـ ثم ؟

ـ أنها حياتك أنت •• وأنت التى تختارين شريكك فيها ••

ـ لقد اخترت وانتهى الأمر •

وتجهم وجهة وأربد « مبر •• مبرو •• مبروك » •

واحتجت بتغاضب بتغاضب مثير « لماذا ؟ ·· ولمادا ؟ تبارك » ؟
التفت اليها يريد أن يصدق ما طاف بذهنه « هل ؟ ·· هل ؟ »
— نعم ·· وأخبرت بابا أن يتحجج برغبتى فى التفرغ للدراسة ·
وانزاح عن صدره كابوس وسأل « ومتى كان ذلك ؟ »
— فور ذهابه ·
— ولماذا لم تطلعينى على تلك النتيجة منذ أن جئت ؟
وبدلال فياح سألته « ولم أطلعك وليس هناك من جديد ؟
أدرك فخ سؤالها « على الأقل لأنصحك وأثنيك عن رأيك » ·
— وهل ترضى به ؟ هل ترضى لى أن أعيش هناك ·· هناك فى الصعيد
— ولم لا ·· شاب طموح ·· طويل ·· ناعم الشعر ·
وعقبت وقد أولته نظرة ذات مغزى « لكنى لم اقتنع به ·· وليس هو من أريد ·

ومازالت تمعن فيه النظر ورمقها بحيرة مرتجفة بالأمل ·· لكنه سكت وآثر الافلات من حصارها ·

وقال وبلهجة جادة « مما لا شك فيه أنك تسرعت » ·
— لم أتسرع فهو من النوع الذى لا يعلق بالذهن أو المشاعر بمجرد ذهابه وهذا مالا أريده ·

أثارت كلماتها اضطرابه واستطردت « أود ذلك الشخص الذى اذا اشتبكت به حياتى أشعر بأهميتى وكيانى وأعبر معه الدنيا طولا وعرضا ·· من قمة الى قمة ·· ومن واد الى واد ومن بحر الى بحر ·

قال هازلا متفكها « ابحثى لك عن بحار لديه سفينة كبيرة » ·
— واذا اتضح أنه قرصان ·· فمن ينقذنى منه ؟

هزه افتراضها ·· وملكته حماسة عاطفية وأجابها بحزم « لن يستطيع أحد أن يمسك بضرر ·· أو حتى يخدشك بظفره طالما فى صدرى نفس يتردد » ·

وتعلقت أنظارها به رأت فيه شيئا مثيرا متوقدا لم يسبق أن اجتاح مشاعرها بهذه القوة ·

٢٨

صعد حافظ الأتوبيس .. دفعته السواعد المتعجلة وحشرته داخل العربة دون مجهود كبير منه .. وكشفت له العربة عن امكانياتها الرهيبة فى احتواء البشر .. وكشف الناس عن قدرتهم الفذة للتلاحم والالتصاق ، وعن صراعاتهم هبوطا أو صعودا .. جردتهم المدينة من الصبر وعقدت لهم سبل الحياة حتى أصبح مقعد خال أملا يتوقون اليه ويستعدون به .

جاءت وقفته الى جوار رجل مسن مازال محتفظا بقيمه القويمة فى طربوش وضعه على رأسه تضرر الرجل من الزحام وأرغى وأزبد من تجاهل الجالسين لمقامه السابق وأبقوه واقفا ، ونظر متشككا الى شاب التصق به فبذل جهدا كبيرا لينزاح عنه ، ثم تحسس جيوبه بحركة واضحة الاتهام . وزلزله الفتى بضحكة داوية ارتعب لها المسن وسقط طربوشه . رفعه حانقا مغيظا وزام مخاطبا الفتى « زمان كان للطربوش احترامه ووقعة مثلها كانت كافية لوضعك فى السجن » وضج الجميع بالضحك والعبث .

وشابان جلسا على مقعد واحد ، ارتقى احدهما ساقى الآخر وطفقا ينفثان الدخان من سيجارة مشتركة فى لهو ممجوج غير عابئين باشمئزاز الركاب .

وأخيرا استطاع حافظ أن يجلس الى جوار رجل شغل جل مساحة المقعد ، رمقه حافظ لعله يعتدل لكن الرجل ظل متربعا مكانه .. وأطلق حافظ أنفاس الضيق كادت أن تلفح أقفية الجالسين أمامه .

وتطلع الى المتزاحمين بالدرجة الأولى .. لا فرق بين وقفة هنا ووقفة هناك .. لكنهم يريدون مظلة الدرجة الأولى .. ينشدون التمييز .. ولو بقروشهم .. أفكارهم مازالت معلقة على مشجب الدرجات لتضفى عليهم وضعا خاصا .

والرجل المتربع جواره لم ينكمش الى الحيز العادل المقرر له .. وجاء المحصل وسمع حافظ جاره يقول « مصلحة يا أخ » ثم أشار الى آخرين خلفه وقال « معايا .. معايا يا أخ » ومضى المحصل يشق طريقه وهمس له هامس بكلمة خافتة رفع عقبها المحصل يده الى رأسه فى تحية شبه رسمية .. وآخر قال له « اسعاف يا أخ » ورابع قال « مؤسسة » وخامس صرح له « جماعة النور والأمل » وآخر زعق « سيدى الخضيرى .. ياسيد الخضيرى » .

ـ انزل ياحاج واركب (١٧) ٠

ـ ابدا قالوا لى (١٩) وأنزل فى الآخر ٠

ـ ياعمى انزل هنا وخذ (١٧) يوصلك ٠

ـ شلاه ياسيدى الخضيرى ٠٠ مدد ياسيدى الخضيرى ٠٠ مدد ٠

واحتج البعض ضد المحصل « ياسيدى ريحه وخليه لنهاية الخط ٠

ـ طيب ورق ٠

وانبرى أحد الركاب معترضا « كيف يدفع ومفروض أنه ركب غلط » وصاح الرجل « مدد ياخضيرى ٠٠ مدد » ولم يجد المحصل الا أن يخترق الكتل البشرية ٠٠ وصعدت امرأة وسط مع أولادها وأقفاص صفر المحصل وأوقف العربة وهاج « ممنوع ٠٠ ممنوع » ٠

وضحكت المرأة فى دلال « كله ممنوع ٠٠ الكارو ممنوع لغـــاية نص الليل ٠٠ والتاكسى ممنوع يشيل البضاعة ٠٠ أنقلها ازاى » ؟

ـ لا أعرف ٠

ـ يعنى أقفل الدكان وتتكفل انت بالأولاد ٠

ـ رقبتى للأولاد ولأمهم ٠

ـ لكن على سنة الله ورسوله ٠

وانفجر الجميع ضاحكين وصفر المحصل وأعطاها التذاكر ٠

وصعد بائع اطلق شعر ذقنه فى تقى واضح وصاح بصوت مغرد « شربة الدود تنزل الدود ٠٠ قال لك ٠٠ لأ ٠٠ لكن شربة الحاج مدبولى تنزل حنش ٠٠ بقرش واحد ٠٠ مين عاوزنى ٠٠ ومعانا كمان عنبر وارد الهند والسند يقوى الضعيف ويصبى العجوز ٠٠ بقرش واحد يدعو لك فى البيت ٠٠ قرب ٠٠ قرر ٠٠ ر ٠٠ ر ٠٠ رب » وصاح المحصل « أبو قرش ٠٠ وقرشين ينزل هنا القلعة »٠

ونزل حافظ واتجه الى عمله ٠٠ ودخل المكـــان العتيق وقرأ تحية الصباح على زملائه بصوت خافت حتى لا يقطع عليهم انهماكهم وأعلنه أحدهم بخبر مثير سمعت ياسيدى التعليمات الجديدة ؟ ٠

ـ خير ان شاء الله ٠

ـ اسمع ياسيدى ٠٠ يؤكد المدير ما سبق ما نص عليه فى التعليمات السابقة من ضرورة فهرسة وتصنيف العدد المحدد من الكتب والمخطوطات وذلك قبل نهاية الأسبوع الثانى من شهر يوليو الجارى • ويضاف الى ما سبق الكتب الواردة من القصور المصادرة •

وعقب حافظ « وفيم العجلة وقد مضى عليها سنيْن لا يعلم بها أحد ؟ » •

وتدخل زميل آخر « سمعت والعهدة على الرواى أن المدير ينوى اذاعة بيانا على الصحف يذكر فيه انجازات الدار خلال هذا العام بمناسبة الأعياد وسيتحدث بالتفصيل عن الكتب المصادرة » ثم دار النقاش بين الجميع •

ـ وما قيمة هذا البيان بينما الفائدة الحقيقية لن تأتى الا بشرح تلك المخطوطات وهذا يستغرق سنين طويلة •

ـ المطلوب كلام له رنين ووقع جميل ٠٠

ـ تصور الناس عندما يسمعون ٠٠ وقد تم خلال هذا العام تصنيف كل الكتب المصادرة من قصور الأمراء السابقين والاقطاعيين وجهزت لاطلاع الشعب •

ـ يظهر أن المدير يأمل فى ترقية •

ـ ويغرقنا بهذا الطوفان من العمل •

ـ وهل تعتقد انه ينتظر منا أن نتم فعلا ذلك العمل ؟

ـ طبعا ٠٠ والا فيم كانت تعليماته المشددة ؟

ـ أولا هو يعلم اننا سننفذ ما يريد بأى طريقة •

وعقب حافظ « وحتى اذا لم ننفذها فاننا مسئولين عن عدم دقة بيانه ٠٠ ولكل خطأ مسئول يحاسب عنه » وعند كلمة مسئولية صاح زميل مرتجف « بدلا من هذا النقاش اشتغلوا ٠٠ اشتغلوا ٠٠ **اشتغلوا** أحسن » •

وبدأ حافظ عمله وراح يملى زميله أسماء الكتب •

ـ اكتب ٠٠ أحوال الرعية فى الرواتب والماهية ٠٠ لمؤلفه ساجقلى طبوزاده ٠٠ فى شرح الأجور والجعول فى الدولة المملوكية •

ـ بعده ؟

– لم القوانين المعنية فى دواوين الديار المصرية ·· لمؤلفة الأمير عثمان ابراهيم النابلسى ·

– ألم يكن الأجدى أن يحدثنا عن الصابون النابلسى المختفى من السوق ·

– اكتب ولا تسرح ·· وتناول ترتيب الدواوين وأهمال النظار وذكر لمح من خيانات المستخدمين ·

– متخلفون ·· لم يكن عندهم رقابة ادارية ولاجهاز مركزى للمحاسبات ولا نيابة مالية ولا تفتيش مخازن ولا مباحث ··

– اكتب مرسوم من محمد على الكبير بجمع النجارين من القرى والبلاد على الشقة الغربية والشرقية للنيل ·

– طبعا ليؤثث قصرة العظيم بشبرا ·

– كلا ·· بل ليبنى اسطولا حربيا لفتوحاته وحروبه ·

– اسطوله الذى غرق فى نفارين ؟

وجاءه من همس له مع ابتسامة خبيثه « هناك من يسأل عنك » ·

ولم يرفع حافظ نظره عما بين يديه وعلق « من ذلك الأحمق الذى يجىء هنا » ؟

– بل قل من تلك الحمقاء ·

وهب واقفا لتوه « أتقول حمقاء » ؟

– حمقاء لكن حلوة ·· لو لم تحدثنى بالعربية لظننتها أجنبية ·

ردد حافظ لنفسه « لايمكن أن تجىء هنا ·· الا لأمر خطير ·· ترى ما أصابها ؟

وذهب اليها مهرولا يستحث خطاه ·· ولا حت له من بعيد ·· « ليست هى فهذه ·· بيضاء نحيلة نوعا ·· من تكون ؟

واقترب وفضوله يسبقه اليها ··البنطلون والنظارة السوداء

والحقيبة الكبيرة ثم ابتسامة غامضة وقفت أمامها تماما بين الشك واليقين ثم صاح « مستحيل ·· معقول ما أراه ؟ » وألقت نفسها بين ذراعيه وتهدج صوته بالشوق والحنان والأسى « لا أصدق عينى » ·

واطرقت الى الأرض ورمقها ومن خلفها القباب والمآذن والأبراج ثم ثيابها متعددة الألوان تعترض متحدية النقوش البارزة على الجدران والأسوار ٠٠ ودار بعينيه حتى وجد أريكة حجرية من تلك التى كان يستريح عليها حراس القلعة بين نوبات الخدمة ٠

خلعت نظارتها وجلست الى جواره وقال « تغيرت كثيرا ٠٠ أين بهيرة صاحبة القطة المدللة » ٠

ـ ياترى ما أخبارها ؟

ـ ما تت ٠

ـ فقدت الحنان ولم تتحمل الحياة بدونه ٠

ـ ماتت بمرض الكلب ٠

ـ خرجت الى الطريق فأصابها المرض وكان من الممكن أن يحدث لى ما حدث لها ٠

ـ كنت أعتقد انك وجدت السعادة بالزواج ٠٠ خاصة وأن أخبارك انقطعت عنا ٠

ـ أرسلت عدة خطابات لأبى ٠٠ كان آخرها قبل انفصالى عن زوجى لكنه لم يرد ٠

ـ انفصلت ؟

ـ أرادنى بطلة لأفلامه وكان على أن اقنع المنتج بى ليقتنع بزوجى مخرجا لأفلامه ٠

ـ كيف ذلك ؟

ـ قابلنى به وتعاطف مع طموح زوجى وخصنى بالمدح ورجاحة العقل وانى أول مثقفة تقدم على التمثيل وبدأت عبارات الاعجاب والشكوى والعذاب ثم نظرات محمومة وعتاب لقسوتى وجمودى ٠٠ ونصيحة بالمرونه وقليل من التساهل ٠٠ ولم أحتمل ٠٠ لم أقدر ٠

ـ وأين زوجك من هذا كله ؟

ـ كان طموحه يركب رأسه ويعمى عينيه ٠

وزمجر حافظ « خسة » ٠

ـ وتركته ٠٠ فكثرت الذئاب حولى ، وأصبحت مطمع كل رجل ، وكرهت الحياة وعذبتنى الوحدة ، وبحثت عن عمل ٠

ـ آن لك ان تعودى الى اسرتك ٠٠ أمك مازالت تبكيك وأبوك تغير كثيرا ٠

ـ انا التى اتغيرت ٠٠ أصبح لى عمل ٠٠ لا تتصور مقدار فرحتى عندما قبلت كمضيفة جوية بشركة الطيران ٠

ـ مضيفة جوية ؟ ٠٠ كيف ؟ ٠٠ عمل شاق ٠٠ وعدم استقرار ٠

ـ بل انى بمنتهى الاستقرار بعملى ٠٠ انتظمت به حياتى وأصبح عمادى ٠

ـ ستسر سماء جدا باخبارك ٠

ـ أرجوك لا تخبر احدا بحضورى عندك ٠

ـ كيف ؟ ٠٠ أرحمى أمك الحزينة ٠

ـ لا فائدة من عودتى ٠٠ لم أعد بالنسبة لها جرعة الحنان ولن أكون لأبى الفتاة المطيعة ولسماء الاخت المشاكسة ٠٠ لم أعد بهيرة التى عرفوها ٠٠ قد يفرحون بى لأيام قليلة وعندما يكتشفون أنى لست بهيرة المدللة وأصبحت شخصا آخر سيصدمون لفقدى مرة أخرى ٠٠ لا داعى لأن نكرر الألم يكفى مرة واحدة ٠

ـ وكيف تعيشين وحدك ؟

ـ ولست وحدى ٠٠ أنا دائما مع الناس ٠٠ وفى الجو مع السحاب والنجوم وحتى اذاهبطت الى الأرض فللراحة ٠٠ والاستعداد لرحلة وعمل آخر ٠

ـ لابد لك من أسرة والا حياتك تكون ناقصة ٠

ـ كل شىء ناقص فى الحياة ٠٠ حقيقة على أن أتقبلها وأعيش معها ٠

وردد بهمس المعاناة « كل شىء فى الحياة ناقص ٠٠ حقيقة يجب أن نعيشها » ثم اتجه بحديثه اليها قائلا « صدقت ، كل شىء صادفته ناقصا ٠٠ العمل ٠٠ الصداقة ٠٠ الهواية ٠٠ الحب ٠٠ العذاب ٠٠ الأمل » ٠

ـ قد يعوضنا العمل عن كل ما ينقصنا ٠

ـ لو كان كلامك صحيحا لأكتفيت أنا به وارتحت ٠

ـ انت من يقول ذلك •• وعهدى بك مشغولا بشىء ما •

ـ أردت أن أستهلك فيه نفسى •• فلم أفلح •

ـ لنقبل الحياة بهذا النقصان •

ـ ولا أستطيع ذلك ولا أطيقه •

ـ انك تخيفنى وتزعزع ثقتى •

ـ لاتحملى قولى محمل الجد •• المهم أين تقطنين ؟

ـ لا اقامة ثابتة لى •• لكنى سأزورك قريبا •• ولا تقلق بشأنى •

وذهبت ومعها ظلال عشرات الألوف من الباحثات عن طريق فى الحياة ••• عن صيغة كريمة للعيش •• وليخرجن من صفوف المنتظرات •• منتظرات السعادة •• أو عبث القدر •

ومضت بهيرة فى طريقها بخطوات راكضة دون أن تنظر الى الخلف •

الفصل التاسع

٢٩

صمت الظلام وأخلدت هى الى سكون الليل وحركت كوامنها نسمة حانية هدهدت خواطرها السارية ونجوم الليلة البعيدة علامات للشاردين الضاربين فى صحراء الوجدان ودرب الحرمان وتياه الانسان •

النجوم هى النجوم والبيت الكئيب مازال كئيبا والأب الهارب مازال هاربا والأم الحزينة مازالت حزينة •• وذلك الصامت عابر الخيال مازال غامضا مقلقا •• يقترب ويبتعد • يرنو ويجفل • يترنح بين حلاوة الاقبال ومرارة الادبار •

وبلغ الأمر ذروة المواجهة عندما أعلنته بنتيجة الليسانس وتقدير دون لا جميع السنين السابقة وقال مكذبا « مقبول ؟ •• لاشك أنك تهزرين » •

ـ بل هى الحقيقة المرة •

ـ على أى حال مبروك •• وماذا بعد النجاح ؟

ـ قد أسافر للخارج •

سألها فى لهفة كشفت قلقه « لماذا ؟ •• وأمك » ؟

ـ قد أستطيع أن أعثر على بهيرة وآتي بها قبل سفرى •

وهدأ قليلا ثم عقب معجزا « من الصعب عودة أختك » •

وأمسكت بنظراته وأهدابه مشرعة نحوها راغبة فى احتوائها ! وقالت « أرغب فى الاستمتاع بالصيف بالخارج وجمال الحياة هناك » •

ـ قد يكون بالامكان ادراك جمال الحياة من واقعها هنا •

ـ أريد الانطلاق •• أريد أن أمضى أياما بلا هموم بلا أحزان •• أريد أن أطير فى السماء •

ـ سأرسل لك بعض الكتب •

ـ لا أريد كتبا •• أريد أن أمارس الحياة بنفسى لا من خلال الصفحات والسطور •

لكنه رغم ذلك أرسل لها كتابا عن حياة ناجى شاعر الحب والعذاب ولأنه أول كتاب عن الشعر يبعثه لها راحت تقرأه فضولا ونهلت من صفحاته الوجد والجوى والحرمان والضنى •

طافت برأسها أسئلة • لماذا هذا الكتاب بالذات ؟ ولماذا هذا الشاعر بالذات ؟ أحب مرة واحدة فى حياته وظل يناجيها حتى آخر نسمة وهو على فراش الموت •• ياله من محب •• لماذا وعدنى بمناقشته ؟ ماذا يريد منى ؟•• ماذا يريد أن يقول ؟ ماذا يريدنى أن أستنتج ؟

وسقطت ورقة مصفرة من الكتاب ، انحنت وتناولتها وشرعت فى القراءة بشفتين متحرقتين •••

ـ ما أحلى غرامنا •

ـ كلام يردده كل العشاق •

ـ ما حيلتى وغرامك شل فكرى ولسانى •

ـ وكيف أعرف حبك ؟

ـ من عينى ، من همساتى ، من أناملى المرتعشة ومن أنفاسى الخافتة •

ـ أريد شيئا تخصنى به وتعبر لى وحدى به •

ـ القبلة •

ـ انها تضييع الحب •

ـ هى رسوله ٠

ـ بل رسول نهايته ٠

ـ هى شعلته المتقدة ٠

ـ واذا اشتغل انطفأ ٠

ـ لا حب بلا قبل ٠

ـ دعه متوهجا فى أعماقنا بلا قبل ٠

ـ قد نحترق به ٠

ـ أريد غراما حيا نابضا ٠

ـ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠

ـ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠

ـ انى متشائمة ٠

ـ الحب هو الأمل ولا حياة بلا أمل ولا أمل بلا حب ٠

وزاغ منها الحوار بين السطور المطموسة ٠٠ بقايا حروف أجهدت عينيها بينها وأمسكت بقلم توصلها ببعضها واستطاعت بعد لأى أن تميز اسمه حافظ عبد المعبود « ثم عفا ٠٠ عفا ٠٠ « عفاف » واستخلصت أسمها بصعوبة ٠٠ واهتزت الورقة بين يديها وثارت براكين من الاسئلة ٠٠ من هى ؟ ٠٠ هل هى صديقته ؟ أم من صنع خياله ؟ ٠٠ الحوار ساخن ملتهب ولا يكون الا بين محبين ٠٠ ومنذ متى وهو يعرفها ؟ ٠٠ هل هى حبه وسر شجنه ؟

اندفع الشك الى رأسها يدق لها طبول الغيرة بدقات محمومة ٠ لم يسبق أن اشتعلت بمثل هـذه الانفعالات ٠ لم يسبق أن اجتاحتها موجة عارمة من الأسئلة المحيرة بشأنه ٠٠ كانت تأنس له وتطمئن لهوتتهادى مشاعرها معه بلا التهاب بلا اهتزاز ٠٠ كل شىء معه مضى سهلا سلسا ٠ كان أقصى ما يعتمل فيها بعض القلق لغيابه ، بعض الاشتياق لحديثه واعجاب بآرائه وارتياح لأهتمامه بأمرها ٠٠ وتهنأ بنظراته الحانية ٠٠ مرة أو مرتان دغدغت لمسات يده أعصابها ٠٠ وهمست متسائلة « هل كنت أحبه دون أن أدرى ؟ ٠٠ هل انساب الى قلبى قطرة قطرة دون أن أشعر ؟ ٠٠ مستحيل ٠٠ الحب له هزات عنيفة مزلزلة »

وفى أول لقاء استقبلته كاملة التزين بصورة لم يعهدها من قبل وتهادت أمامه تخطر تلمس الأرض لمسا وقالت وقد أحكمت الرتاج على انفعالاتها « قرأت شاعرك المفضل » •

ـ لعله أعجبك ؟

ـ أعجبنى خاصة تعليقاتك المثيرة

ـ أحيانا أمل القرأة فأكتب أى شىء يخطر ببالى •

وعقبت فى هدوء « لا يمكن أن يكون ذلك أى شىء » ووشت بها نبرة غاضبة حين قالت « انها كلمات منتقاة وحوار دافىء •

ـ ماذا تقصدين ؟

ـ ألا تذكرها ؟

ـ أذكر من ؟

ـ التى حركت خيالك •

وضحك « قليل من الهزل لا يضر »

بحنق واضح « بل أنا أعنى ما أقول •• وأصر على معرفتها » •

ـ من هى ؟

ـ الحب هو الأمل ولا حياة بلا أمل ولا أمل بلا حب

وقطب جبينه « كأنى قرأتها فى كتاب ما »

ـ القبلة رسول الحب •

ورددها مسا « بل رسول نهايته » •

ـ أراك قد تذكرت •

ـ نعم •• انها مشروع قصة •

ـ قصة غرامية قطعا •

ـ هى كذلك •• لاحظ لها ولاحظ لى •

ـ يالك من رقيق القلب •

ـ قتلوها بالصمت •• نوع جديد من القتل •

ـ وأين هى الآن ؟

ـ على الارجح فى سلة المهملات ٠٠ ما لم تكن بيعت مع الأوراق الدشت
ـ لا تراوغنى وقل الحقيقة ٠
ـ هذه هى الحقيقة بمرها ٠
ـ لا توهمنى أنك عشت بلا حب وبلا غرام ٠

ونظر اليها بامعان وتأملها جيدا ونبست شفته بكلمات غير مسموعة ثم اتجه الى النافذة وأطلق عينيه الى الأفق البعيد وبصوت صاعد من ركن سحيق قال « فعلا أحببت ٠٠ وعشقت ٠٠ أحببت بلدى وسماءها ونيلها وعشت تاريخها الطويل وتنسمت أمجـادها وتعذبت بكبواتها »

واستدار اليها وأرجفته دموع تترقرق فى عينيها ، وقدمت له الورقة المصفرة وقرأها وبعبارة حزينة « كانت مسودة قصة قصيرة أرسلتها الى مجلة العرفاء ٠٠ لم يحملوا أنفسهم عناء الرد بالرفض ٠٠ تركونى استنتج ذلك عن طريق الاهمال » وفى حماس من شبابها مسحت دموعها وسألته « لمـاذا لا تحاول مرة ثانية ؟ ٠

ـ حاولت وبلا فائدة ٠٠ لهم أحكام نهائية لا يتراجعون عنها ٠ ويظهر أن أحكامهم كانت ضدى وصار مجرد وجود اسمى على أى قصة كفيل برميها فى سلة المهملات على الفور ٠
ـ لتكرر المحاولة ٠
ـ لا أمل ٠
ـ لا حياة بلا أمل ولا أمل بلا حب ٠
ـ لا تمسكينى مما كتبته ٠٠ بعضه ترديد لمـا قرأته ٠
ـ انها عبارة جميلة تحطم الواقع الممل وتدفعنا لحب الحياة
ـ لا دافع لحب الحياة الا الحب ذاته ٠
ـ ولمـاذا تتجاهله ؟
ـ ومن أدراك ٠٠ ربما أكون غارقا فيه ؟

وهرعت اليها الظنون فسألته « ومن تلك التى أغرقتك فيه ؟ »
ـ قد تكون فكرة ٠٠ أو قصة ٠٠ أو قصيدة ٠

ـ عدت للمراوغة ‥ لماذا تحاول أن تبدوا غامضا ؟

وبصوت اكتسب صدقه من اختلاج نبراته « كيف أكون غامضا معك وأنت زميلة فكرى وأنيسة خيالى ؟ » أرعشتها كلماته فهمست محمومة » « وأنت فكرى وخيالى وقلبى »

ردته عبارتها الى سنوات مضت وأفسحت الذكريات لنفسها طريقا وجاءت ومعها كلمات بهيرة عندما راهقت عليه بعواطفها الغضة ‥ أنت الأنسان الوحيد فى حياتى ‥ تحملت بسببى الكثير ‥ جالستنى حتى شفيت من مرضى ٠ أنت الابتسامة اليتيمة فى يومى وغدى ‥ والآن تأتى دون الجميع وتطالبنى أن ‥ أتزوجه ‥ أنت دون الجميع ‥ وأنا أردتك أن تكون آخر همسة على لسانى وآخر ما فى حياتى ٠

وأخرجته من ذكرياته بسؤالها « ماذا بك ؟ ‥ أراك متعبا ؟ هل أحضر لك كوب ماء ؟ » ٠

‥ أى ماء وأى دواء وأنت تحركين فى الأمل وتهيجين العذاب الساكن ‥ تحملت أوهام حب أختك الذى كان فى واقعه بحثا عن حنان الأب ‥ فما هى أوهامك ؟ وأنت أنضج عقلا ومحتوى ‥ نمت بيننا أغصان تشممت عليها رياحينك الطاهرة ‥ ونبض قلبى بعاطفة أخمدها عقلى الطاغى ‥ أين الربيع من الخريف ؟ ‥ آه ياربى لماذا كل هذا العذاب ؟

وجاءته بالماء ‥ ماء مشبع بحنانها ‥ تجرعها ‥ جرعة ‥ جرعة ‥ لا يريدها أن ‥ تنتهى وهى تحدب عليه بنظرات رانية وسألته « ألا زلت متعبا ؟ » ثم جلست الى جواره ٠

ـ كلا ‥ أحسن ٠

ـ كل ما حولنا يضحك ويغنى ‥ لا يدعو للاضطراب أو التعب ٠

ـ أنها تضحك لك وتغنى لك ‥ أما أغنيتى فقد سمعتها منذ زمن بعيد

ـ أكاد أسمعها من عينيك ٠

ـ أنه الصدى وليس الأصل ٠

ـ الحب لا أصداء له ٠

ـ خيالات ٠

ـ أراه واضحا ٠٠ تكاد خلجات وجهك تنطبق به ٠

ـ أرجوك ٠٠ دعيني أعيش في هدوء ٠

ـ أريد اسعادك ٠

ـ السعادة ؟ ٠٠ قد نشقى بحثا عنها ولا نبلغها ٠

ـ هى موجودة ٠٠ فى اللحظة التى تجمعنا ٠ ٠وبالفكرة التى تربطنا ٠٠ وفى الأمل الذى ننشده ٠

ـ تهيؤات ولا أكثر ٠

ـ بل أحس بها ٠٠ أحس بنبضها يدب فى دمى ٠

ـ لكنى أتوجس منها ٠٠ اذا نالنى منها قطرة توقعت بعدها تعاسة ٠٠ هكذا مضت أيامى ٠

ـ القطرة قد تصنع مطرا ٠

ـ واذا تحول الى سيل يجرفنا ؟

قالت فى صبر كاد أن ينفذ « ليجرفنا ٠٠ لننجرف لنعشها سعادة صريحة واضحة »

ـ صريحة ؟ واضحة ؟ ٠٠ لمن ؟

ـ لى ٠٠ ولك ٠٠ لأمى ٠٠ لأبى ٠٠ للناس

ـ انك تخرفين ٠

ـ بل أدرك ما أقوله ٠

ـ وفارق السن واختلاف الطباع والمزاج ٠

ـ ألست زميلة فكرك وأنيسة خيالك ؟

ـ قولة منفعل خلت من الحكمة والتبصر ٠

ـ لم تتراجع ٠٠ وأمامك السعادة والحب ٠

وبتر اسـتطرادتهـا بنبرة مقنعـة « دعينى أوضـح لك حقيقـة مشاعرك ، لقد أعجبت بناجى الشاعر »

ـ هراء ٠

ـ لقد حرك شعره كثيرات غيرك وأحببنه فى أقاربهن وجيرانهم هكذا هيء لهن ٠٠ ثم عندمـا انزاح الـوهم وبرزت الحقيقة عرفن معنى السراب ٠

ـ تكلم بما يحلو لك ٠٠ لن أصدق الا قلبى ٠

ـ شعره العذب وشقوته بالحب رققت قلبك فعكست كل ذلك على ٠

وقفزت واقفة رافضـة الاسـتماع لمنطقه ، لكنـه استمر يهيله أمامها « وأنا لست فيه من شيء ٠٠ بل أنا أخالفه تماما ٠٠ هو آمن بالحب الواحد ٠٠ وأنا أعتقد فى الحب المتغير » ٠٠

استفزتها كلماته وقالت « الحب لا يتغير ولا يتبدل »

ـ واقع الحياة المتغير طبع كل شيء بالقلق وعدم الاستقرار حتى الحب ٠

بانفعال مكظوم « الحب هو ٠٠ هو ٠٠ أمس واليوم وغدا »

ـ أظنك الآن مقتنعة أن نظرتنا للحب مختلفة ٠

وبلهجة تتفصد ألمـا « لا تحاول ارباكى ٠٠ لاتربك تفكيرى »

وبصوت صاعد من جرح قال « ما أردت الا أن أبين لك حقيقة مشاعرك حتى لا تذهبين بعيدا فى الخيال » وفى غضب قالت « لمـاذا تثير المصاعب ٠٠ لماذا ؟ » ٠٠ وذرفت دموعا حركت كوامنه فاقترب منها ورفع يده ليربت عليها لكنه أوقفها بقسوة وتصلبت بينهما ٠٠ لاتريم ٠٠ ومن بين دموعها لمحت يده وأصابعه المرتعشة كعلامة اعتراض ٠٠ فاندفعت للداخل وتابعها بنظره وقلبه وعقله ٠

وتنبه لوقفته وغادر المكان متحسرا على أمل كان من الممكن أن يطل به على الحياة ٠٠ لكن سحب الخريف ٠٠ خريفه ، زحفت تخفيه وتداريه ٠

٣٠

ونشرت القصة بمجلة العرفاء ·· رقصت الحروف وتزاحمت على عينيه الكلمات والعبارات وكان قد أرسلها منذ أسبوعين تحت الحاح وضغط منها ·· انصاع لرأيها بلا اقتناع بجدوى المحاولة ·· طرحت تشاؤمه أرضا ولم تشاركه يأسه ·· فكتب قصته ·· رشفة الحب الخالدة ·· قرأتها معه مرات ومرات وتوقفت معه عند كل عبارة ليبدل لفظا بآخر أو ليؤكد معنى خافيا ·· حتى ارتاحت لها ·· ودعت له بالتوفيق وهو ذاهب ليودعها صندوق البريد ·

اشترى لها نسخة ودون عليها كلمة وفاء وتقدير ·· الى من اقتنعت بى بأكثر من اقتناعى بنفسى ·· الى الأمل والرجاء أهديك أول قصة ، وقرأت الاهداء وتسللت اليه بسعادتها من خلال أهداب محملة بندى دمعها ·· وما استطاعت أن توقفه فسال ليتساقط على صدرها قطرات لؤلؤية غالية ·

وقال بعد صمت « ما كنت أظنها تنشر » ·

ـ كنت متأكدة خاصة عندما غيرت أسمك ·

ـ لست أدرى هل أنا مصيب أم مخطىء فى ذلك التغيير ·

ـ أنه اسم موسيقى ·

ـ اختيارك ؟

ـ صادق فؤاد ·· ليتك كتبته صادق الفؤاد ·

ـ لا هو صادق ·· ولا صادق الفؤاد ·

ـ ولو كنت وقعتها بحافظ عبد المعبود ما نشرت ·

ـ هل لابد من التحايل لنصيب أى نجاح ؟

ـ كلا الاسمين سيان لدى القارىء والمجلة ·· وعندى ·

ـ هل تقبلين ارتداء ملابس غيرك ؟

ـ أنها ملابسك أنت ·· ومن اختيارك وأنت صاحبها ·

ـ ألا يعنى ذلك أننا قمنا بعملية تمويه ؟

ـ جورج صاند لم تغير اسـم شهرتها حتى بعد أن عرف الجميع أنها سيدة وليست رجلا ·

ـ شذوذ لا أقره ·

ـ وتقبلها القراء بهذا الاسم ولم يناقشوا أسبابها .

ـ كيف أستبيح لنفسى استخدام مالا أملكه ؟

ـ اذهب وسجله بالشهر العقاري وينتهى الاشكال .

ـ ثم كيف أتخلى عن اسمى الذى عشت به عمرى .

ـ وما قولك فى الذين يهاجرون الى بلاد جديدة بل ويتركون أسرهم ويستمرون فى الحياة سعداء بهذا التغيير .

ـ لو بحثت فى أعماق كل منهم لوجدت الهارب من فشل أو من واقع عجز عن مواجهته فآثر الابتعاد .

ـ ألم تهاجر أنت الآخر الى كتبك وأسماكك لا تخالط ولا تصادق ؟

ـ أنا عشت بين الناس ومشاعرهم ومآسيهم ونضالهم بين الكتب .

ـ هذا لا يكفى .. لابد من الاندماج والالتحام .. وفرصتك مع صادق .. تجتمع وتقابل وتحادث به الناس .

ـ وحافظ ؟

ـ ابقه بالقلعة .

ـ مجرد احساسى بأنى أكتب باسم مستعار قد يعطل تفكيرى .

ـ ألا ترى أنك الآن أكثر حيوية بعد أن نشرت قصتك .

ـ النجاح يولد الحماس .

ـ هذا ما أريده فيك دائما .. ولا بد أن تكتب وتكتب لتظل بهذا الحماس والنشاط .

ـ قد يفتر لأنه نجاح ناقص .. يعوزه الصدق .

ـ تعود سماع الاسم الجديد .

ـ هل تستطيعين اقناع أباك بتغيير اسمه أو اسم متجره ؟

ـ كلا .. لأن لهما شهرة تجارية مضى عليها عشرات السنين .

ـ وأنا مضى على عشرات السنين مرتبطا بحافظ عبد المعبود .

واقتربت منه وركزت عينيها فى حدقتيه تسقيه معانيها « اعتبره ابنك الطفل .. تحضتنه وتقبله .. وتنزعج لمرضه وتفرح لكبره وتعتاد وجوده » .

ـ قد أراه دخيلا ؟
ـ لو كان كذلك لدلنى شعورى ·
ـ كثيرا ما تخطىء مشاعرنا ·
ـ صدقنى أشعر به كأنه أنت ·
ـ آه ·· كأنه ؟
ـ بل أنت هو ·· وهو أنت ·

وردد بدهشة ومتبسما « أنا هو ·· وهو أنا » ؟
وهى ما زالت تسكب رحيقها « هو منك ·· وأنت منه »
وبهمسة خافتة ·· حالمة تذيب أى مقاومة « أرجوك ·· حتى يرسخ الاسم فى أذهان القراء ·· أرجوك » ·

٣١

مشى ضاربا فى الطريق ·· أى طريق ·· لم يعنه الطريق ولا الاتجاه ولا المارة ولا العربات كل ما التقطته له عيناه بدا خيالات وظلال ·· وسيارات تمرق بلا ألوان ·· بلا ركاب ·· وأحيانا بلا سائقين ·· وأشباح تتجاوزه بسرعة ·· لابسون ؟ عارون ؟ ·· يقظون ؟ ·· نائمون ؟ ·· رجال ·· نساء ؟ ··· بلا سحن ؟ ·· بلا سمات ؟ ·· طوال ؟ ·· قصار ·· هزال ·· سمان ··

قافلة بشرية تتحرك بآلية الاشارات الخضراء والصفراء والحمراء ·· وبقايا أناس على الأرصفة بلا أطراف ·· بلا رؤوس ·· وماسحو أحذية يتصيدون الأقدام البالية بصناديقهم الصغيرة من أجل قروش قليلة ·· وباعة صحف قابعون بجوار بضاعة لايعرفون عنها الا أثمانها ·· وأقلام الأمس مرفوضة اليوم ·· ومقالات اليوم تموت غدا ·· ومقاه وجالسون منذ عشرات السنين ·· و دار الناس والأرض مائة ألف دورة وما زالوا جالسين وأجسام تروح وتجىء ·· والخطوط البيضاء داستها الأقدام وسفختها الاطارات· ثم صفير حاد جدا ·· حاد جدا ·· وشىء ما مثل الخطوط البيضاء يلوح ويصرخ·

ـ اسمك .

ـ حافظ عبد المعبود .

ـ ياحضرة اسمك الثلاثي .

ـ حافظ عبد المعبود معوض .

ـ مخالفة بخمسة وعشرين قرشا .

ـ لماذا ؟

ـ علامات المرور لازم تحترم .. أصفر وأشاور ولا انت هنا .

ومضى يردد لنفسه « نعم لست هنا » .. حتى وجد نفسه أمامها قادته اليها قدماه كما قاده الشرطى الى كشك المخالفات لفعل آتى به دون أن يدرى .

وسألته منزعجة لهيئة المضطربة وخطواته المتعثرة « ماذا بك .. أين كنت » ؟ ثم اردفت « تبدو متعبا » .

ـ منذ أن نشرت القصة وأنا على هذا الحال .

ـ هذه بوادر قصة جديدة .. لعلك تسرع بها .

ـ . . . . . .

ـ ثريا صديقتى قادمة باكر لزيارتى .. وتريد مقابلتك .. البدلة الكحلى تناسبك جدا .

ثم دارت أمامه تنبهه اليها « ما رأيك فى فستانى الأخضر » ؟

. . . ها هى تدور أمامى كما دارت أختها تؤكد حسنها .

ـ أليس هو لونك المفضل ؟ .. ألم تختره لبطلتك فى « رشفة الحب الخالدة » .. وأستطيع أن أطلق شعرى مثلها .. لو تفهمنى كما فهمتها ؟ .. فيم شردوك ؟ .. دع الفضاء واهبط الى الأرض .

. . . أى فضاء وأنا مكبل بك هنا .

ـ أم تريد الانطلاق الى السماء والفضاء ؟

. . . ليتنى أستطيع حيث لا حدود ولا قيود .

ـ متى تنتهى من قصتك الجديدة ؟

• • • الله رحمنا عندما جعل لـكل شيء نهاية •• للعذاب نهاية •• للشقاء نهاية •• للسعادة نهاية •• وللحياة نهاية •• ليتنى أعرف لى نهاية •

ـ أريد أن تحدثنى عن قصة صادق الجديدة •

•••مرة أخرى تتمسكين بالظل وتتركين الأصل

ـ انك اليوم لا تحتمل •• ماذا ألم بك •• لـماذا لا تتكلم •

ـ وماذا تريدنى أن أقول ؟

ـ قصة جديدة لصادق •

ـ صادق ؟

ـ صادق ؟ حافظ ؟ سيان عندى •

• • • تذكرينى بمديرى اللوائحى •• كلنا موظفون •• كلنا كادر واحد كلنا درجة واحدة •

وسألته وهى تصب الشاى « قطعة سكر واحدة طبعا » ؟

ـ أدمنته بسببك •

وعقبت مكركرة « تحلو به الثرثرة »

• • • لو ثرثرت معك العمر كله لن أضيق بك

ـ اشرب قبل أن يبرد

• • • تكفيه نظرة منك ليظل دافئا •

ـ ماذا سنشرب فى المستقبل •

• • • مستقبلك عريض •• أما أنا فعمر بلا ربيع •

ـ ماذا عن مشروب المستقبل ••

ـ آه •• قد يأتينا به رجال الفضـاء •• فالدخان جاءنا مع مكتشـفى أمريكا •• والشاى عرفناه من مستعمرى آسيا •

ـ كوب آخر ؟

ـ لا بأس •

وهى ما زالت تسكب أسئلتها مع الشاى « ومتى ستكتب » ؟

ـ لا أدرى •

– ألا تخشى أن ينس القراء صاحبك ؟

• • • وجعلت منه صاحبى ؟ وكيف يكون صاحبى واهتمامك به شديد ؟

– أريدها قصة انسانية •• تتحدث عن الانسان الذى يعلم أنها حياة واحدة ومستعد أن يفنى بها فى سبيل غيره •

•• ها قد وضحت النيات •• توحين الى بفكرة القصة وتقصدينى بها لأذوب وأفنى فى صاحبك •

– ماذا قلت عن تلك الفكرة ؟ ••• أرجوك ياحافظ •

– حافظ ؟

– عدنى يا حافظ •• أرجوك •

وتجرع الكوب دفعة واحدة وسرى نداؤها فى كل شراينه وأوردته، ثم وضع الكوب وقد أذاب خمر رجائها كل هواجسه وتعلق بثغرها مترقبا نداء آخر •• أو كلمه عطرة •• لكنها منحته ابتسامة ظلت تتسع له اتساع الدنيا فى يوم صفت سماؤه •

٣٢

– لماذا اطلقت عليها اغتصاب ضفيرة شعر ؟

الاعتصاب حولنا فى كل مكان ، والتزييف حتى فى وسائل الجمال •

– الفكرة لا بأس بها •• لكنك تحمل المغزى أكثر مما يجب •

– كيف ؟

– لأن البائعة سرعان ما ينمو لها شعر آخر •• وكأنها لم تفقد شيئا •

– لكن ال ••

– وفى نفس الوقت أعطت جمالا لأخرى وأسعدتها به •

– لكنى أرى فيه نوع من تجارة الرقيق •• ولو بشكل جزئى قطعة •• قطعة •

– ليتها تنشر مثل الأولى •

ودخلا غرفة الاستاذ خورشيد محرر الصفحة الأدبية بمجلة العرفاء ، رسم على وجهه ابتسامة محسوبة بمعيار صحفي ومد يده مصافحا وقال « ظننتك دون ذلك سنا » ٠

فقالت سماء « الشباب بالفكر والرأى » ٠

ونظر اليها متعجبا جسارتها فقدمها حافظ له « الآنسة سماء » ٠

ـ أو الآنسة الهام ٠

وتوردت خدودها وصفقت أهدابها للقبها الجديد ، لكن حافظ فى تلعثم واضح أجابه « هى ٠٠ هى بمثابة تلميذتى ومشجعتى » ٠

ـ هل قصتك السابقة هى أول ما كتبت ؟

ـ تقريبا ٠٠ وبمعنى أدق أول ما نشر لى ٠

ـ وهل رفض لك نشر قصص قبلها ؟

وتدخلت سماء « حاول مع احدى دور النشر العامة ولم يوفق » ٠

ـ ولماذا لم تكتب الا مؤخرا ؟

ـ اختزان التجربة والدوافع والمثيرات استغرقت منى زمنا طويلا ٠

أمسك بالأوراق التى قدمها حافظ ثم تمتم «اغتصاب ضفيرة شعر ٠٠ عنوان مثير حقا ٠٠ سيسر رسامنا به فهو غاوى الشعر حتى خمنت أن زوجته صلعاء » ثم انفجر ضاحكا واضطر حافظ للابتسام ٠

وبدأ يقرأ ، وطغت على سحنته علامات من الاهتمام تحولت الى امتعاضة خانقة ، وتضاربت على وجهه الانفعالات واطبقت اسنانه المتكلسة على شفته ، وتوجست سماء خيفة وسرت الى حافظ مشاعرها وكونامعا لوحة من القلق فى خطوط متتالية مع اختلاف فى حدة التعبيرات ٠

ولم ينقطع تراسل النظرات المتململة بينهما حتى يزغب ابتسامة خورشيد فأزاحت توتراتهما ٠ مسحت سماء راحتيها المبللتين بعرق الانتظار ٠٠ ورنت الى حافظ بشعاع محمل بالحب والبشر لكن سرعان ما خبا كل شىء على جبين خورشيد المتجهم ، وطفق صدرها الناهد يعلو ويهبط يزفر الأمل ويشهق اليأس ، وتوقف كل شىء حتى ألقى

خورشيد بالأوراق باهمال جعل حافظ ينهض ليجمعه والعودة به من حيث أتى ، لكن كلمات خورشيد سبقت يده « اهنئك يا أستاذ صادق ٠٠عمل جديد ولون جديد » واستطاع حافظ أن يخرج صوتا حشنا « متشكر ٠٠ متشكر » ٠

ــ هل يمكنك أن تقدم لنا قصة وفى نفس الحجم كل أسبوع ؟

ــ اتعشم ذلك ٠

التفت خورشيد نحوها « البركة فى الآنسة الهام»فصفقت أهدابها للقبها الجديد مرة أخرى وقال حافظ « سأبذل جهدى ٠٠ سأبذل جهدى » ٠

ــ يبقى اتفقنا :٠

وخرجا معا وهبطا الدرج معا ، وسارا معا ، وغفيا معا ، وحلما معا ونامت يدها فى راحته ونظر اليها فوجد رايحنا وأزهارا ووعودا ٠٠ وتحرك شفتاه بكلمات ما نبست بها ٠٠ لكنها فهمتها ٠٠ وأجابت بنبضات من يدها ، استقبلتها راحته برجفة هزتها ٠

وبعد مسافة تبينا أنهما يسيران فى الاتجاه المعاكس فضحكا ثم سألها « الى أين » ؟

ــ أريد أن اطير ٠

ــ أشعر بجناحين خرجا من كتفى استعدادا للطيران ٠

ــ ليت لى مثلهما ٠

ــ خذيهما ٠٠ هما لك ٠٠ بل خذى كل شيء عندى واعطينى ال ٠٠

وتوقفت تواجهه ليتم عبارته الناقصة ٠

ــ لتعطينى الأمل ٠،

ــ لا حياة بلا أمل ولا أمل بلا حب ٠

ــ ولا حياة بلا فكر ٠

ــ الفكر دائما يبحث عن الأمل ٠

ـ أو ينبش الواقع المر ٠

ـ حتى اذا بحثنا فيه فعلى أمل الى الأحسن ٠

ـ واذا لم نقابل الا الصدمة تلو الصدمة ؟

ـ نحولها الى طاقات نجوب بها الدنيا العريضة ٠

ـ أراك دائمة الاتجاه الى الحياة المتسعة ٠

ـ احب الاتســـاع فى كل شيء ٠٠ فى الحيـــاة ٠٠ فى الأمل ٠٠ فى الحب ٠٠ فى المجد ٠

التفت اليها وتمعنها ثم سار الى جوارها صامتا ٠

الفصل العاشر

٣٣

كان يعلم أنه عندما يقبل هذه الفتاة فى أحلامه ويزوجها الى الأبد خيالاته ٠٠ ويزوجها أنفاسه المتلاشية فى شبابها اليانع فان عقله سرعان مايئد رغبته ويهدم أمنيته ٠

الطريق اليها شاق ، وأنواره المصطفة على جانبيه مثل تلك الشموع ٠٠ شموع كعكة ميلاده يوم أن احتفلت به لأول مرة ٠ كانت كعكة صغيرة وفنجان شاى واثنتى وأربعين شمعة ٠٠ أطفأها بزفرات من عنده ، ساعدته بأخر من صدرها الفتى وسألها ٠

ـ لمـاذا لا نتركها موقدة ٠٠ لمـاذا نطفئها ؟

ـ اعتاد الناس ذلك ٠

ـ أليس الأفضل أن نبقى السنوات السابقة مضيئة ؟

ـ الأفضل ان نفسح مكانا لشموع جديدة فى نفوسنا ٠

ـ ولكن المـاضى وأل ٠٠

وتلاشت عبارته تحت ضغطات نظراتها وبات تواقا لأن يحتويها داخل قفصه الصدرى ٠٠ وجاء الوحشة تلاقى أحاسيس اللهفة ٠٠ تعقبها الرهبة وليس ثمة من شيء يحمى الانفعالات مثل تلك اللمسات والنظرات التى تخصه بها ٠٠

لكنه لم يلبث الا قليلا حتى رانت على وجهه سمات حيرة وشك تجاوزتها الى كل شيء يتعارك ويتضارب في داخله ·· وفي صوت أخرجه بشق الأنفس « أرجوك لا تزرعي الأمل في ·· ولنعش الحقيقة المجردة من كل أوهام » ·

ـ الفنان لا يقاس عمره بالسنين بل بمشاعره وبجمال ما يقدمه · أقرأ ما قلته على لسان ابطال قصصك ·· اخضرار وزهور ونضارة ·

ـ ما أنا الا ضائع لمشاعر الآخرين ··

ـ بل كتبت صميم وجدانك ·

ـ أرجوك ·· انى اتعذب وأعانى ·

ـ المعاناة هى أول الخطوات الى الاتجاه السليم وبداية التصحيح والبحث عن جديد ·

ـ معاناتى بلا جديد ·

ـ بل أنت ترفض أسلوب حياتك وتبحث عن شكل جديد لها ·

ـ يجوز لكنى لا أريد أن اسحبك الى جيل سبقك ·

ـ لقد أصبحت من جيلك ·

ـ تظلمين نفسك وشبابك ·

ـ لا تقل هذا نشأت وجدتك أمامى · كبرت معك ونمت عواطفى معك وأدركت الحياة بك · طبعت ذوقى وصبغت نظراتى بالالوانك » · بمرارة « ألوانى القاتمة » ؟

ـ لم يشدنى شاب ولم يجذبنى فتى فكلهم كانوا زملاء دراسة · · لم يطرق أحدهم خيالى · لم يسهدنى التفكير فى أى منهم · · وتأتى الآن وتكلمنى عن جيلى ؟

ـ انك فى حالة نشوة ولا تدرين قولك ·

ـ لا أرتاح الا لكلامك ولا يثيرنى الا حوارك · تعودت صوتك والشعيرات البيضاء التى برأسك وقطعة السكر الواحدة فى فنجان الشاى · · وأصبحت لا أزيد عليها ·· عشت أمانيك حلمت بأحلامك وعذبنى قلقك ·· أنت قريب منى جدا ·· أقرب من نفسى الى ··

وتعبت شفتاه بتلك الابتسامة المرة المعلقة عليها،فنحاها جانبا واسترخت عضلات وجهه على سجيتها وكونت خطوطا عمودية متوازية رسمت الضيق والشقاء والألم ٠

خافت أن يفلت منها ويتردى فى هوة صمته العميقة فقالت تهاجم منطقه العاتى « ألم تسمع عن بيكاسو الذى تزوج بمن تصغره بخمسين عاما ٠٠ وشابلن تزوج فتاة دونه بثلاثين سنة ٠٠ وما زالوا سعداء حتى اليوم » ٠

— لقد عرفا فتاتيهما وهما ناضجتان فتحابوا وتعاطفوا أما أنا فعهدى بك مراهقة ثم فتاة صغيرة ثم شابة يانعة ٠٠ ثم ٠

— ثم ماذا ؟

— ثم أنهما عبقريان مشهوران لهما حق الشذوذ عن القاعدة وتبـدو أفعالهما للناس مقبولة ٠

— ألا يحتمل أن يلمع نجمك ويسرى عليك ما أسريته عليهما ؟

— تريدين أن تصنعى منى بطلا ٠٠ وأنا لست كذلك ٠

— الذين يحبون حبا عميقا يظلون شبابا ٠

وأوجعته عباراتها فزام وعمهم دون أن يفصح عن وجيعته ٠٠ عقبت بلا هوادة « لو تفهمنى كما أفهم نفسى » ٠

— انى أفهمك جيدا وأفهم نفسى جيدا وهذا ما يحذرنى العواقب ٠

— يخيل لى أن هناك خطأ ما يسيطر على تفكيرك ٠

— عشرون عاما ٠٠ شيء لا يمكن الخطأ فيه ٠

— أنت تعيش مرحلة ضبابية كالتى اجتزتها ٠٠ كانت عاطفتى نحوك موجودة ومبهمة فى نفس الوقت ٠ كانت كشيء على طرف لسانى ٠ أكاد أنطقه لكن لا أدركه ٠٠ شيء قائم فى وجدانى لكن شارد من وعى

هبطت كلماتها عليه بطيئة ، مثـل قطرات النـدى فى الفجر ٠ تنشط وتحمس ليوم جديد ٠ واستمرت قطرات الندى « حتى أمسكت بمسودة قصتك عفاف فتفجرت البراكين الخافية واكتشفت نفسى وأدركت ذلك الشيء الذى كان يدور بينى وبينك ينسج بخيوط دقيقة شيئا قويا ٠٠ أقوى منى وأقوى من الحياة » ٠

وظل صامتا لفترة طويلة صمتا رهيبا ٠ ٠ ثم نطق « ترسمين صورة مقنعة لى ولك » ٠

ـ أنا أعبر عن نفسى ٠

ـ أحيانا يقدم لنا العقل حججا منطقية جدا من تلك التى نريدها ولذلك يجب أن نحذر أنفسنا ٠

وصاحت ضجرة « من المحزن أن نكون على بداية الطريق الصحيح ونتردد فى المضى فيه » ٠

ـ طريقك الصحيح عندما تجدين فتاك ٠

وعقبت فى حنق « انك تضيع أحلى سنين العمر سدى » ٠

ـ لأحفظ لك ربيعك غضا ٠

وبغيظ « لتبقى الحسرة ٠ ٠ حسرة اكتشافنا أنفسنا ومشاعرنا على آخر صفحة من الحياة ٠ ٠ عندما يكون كل شيء أصبح ماضيا لا نستطيع أن نسترجعه أو نعيشه ٠ ٠ وليس لنا الا أن نقول ٠ ٠ لو كنا » ٠

ـ جرعة الدواء المرة كثيرا ما تكون شافية ٠

وفى ثورة عنيفة « كفى حكم ٠ ٠ كفى نصائح ٠ ٠ سئمتها ٠ ٠ وسئمتك ٠٠ وسئمت كل شيء ٠٠ أتسمع ؟ كل شيء » ٠

وراحت تتراجع وهى منفعلة وصوتها الناشج يسمره فى مكانه بلا حراك « حولت الحياة الى مشكلة معقدة » وهم بمتابعتهما ملوحا بيده ليهدىء من ثورتها لكن كلماتها انهالت عليه بلا هوادة « جعلت السعادة مستحيلة ٠٠ ألا تسمع صوت الحياة الذى هو أقوى من أى منطق ؟ »

ـ أرجوك قفى وحدثينى ٠

وهى ما زالت تتراجع « أنظر حولك ٠ ٠ السماء ٠ ٠ الأشجار ٠ ٠ الطيور ٠ كل شيء له أنغام تحركنا لأن نتعاطف ونعيش » ٠

وزلت قدمها وكادت أن تهوى الى الأرض فأسرع نحوها يسندها لكنها تماسكت وانتحت بعيدا وهى تصيح « لا أريد مساعدتك ٠ ٠ لا أريد منك شيئا ٠٠ لا أريد منك شيئا ٠٠ » ثم استدارت تجرى ٠

وعندما أفاق من دوامته كانت قد فرت غرفتها ٠٠ الى المنطقة المحرمة التى لم يدخلها من قبل ٠٠ واجتاز الممر الموصل اليها ٠ لكنه توقف على همهمة مخنوقة ٠٠ أصاخ السمع وتحولت الهمهمة الى أنات أمغصته ٠٠ وبعد فترة من التردد الموجع انسحب خارجا مخلفا وراءه الأمل والحب الضائع ٠

٣٥

عصاه فكره وشرد وتشتت • جال هنا وهناك بلا هدف وبلا ترتيب • عصته عيناه لاتدرك الجمال والقبح • لاتعى الاصورة وملامح العازفة المتباعدة • عصت مشاعره فافتقد الحزن والمرح والجزع والحماس • عصته نفسه لم تعد له طيعة لينة • عصته أحشاؤه لا ترفض ما يأكل ولا تهضم ما يطعم • كره العمل • يذهب ليقضى الساعات المقررة بين زملائه • • صمت فى صمت والعيون حوله تشفق ولا تسأل • • هجر المـاء والشاطىء الحبيب ونسى هوايته من الأسماك • • وأضناه الفراق وأشقاه البعاد •

جلس الى الأوراق يسفح عليها معاناته ويعصر فكره لعل القلم يهتدى الى عبارة • • عصته يده ولم يجد بعد ساعات من الارهاق الا خطوطا ورسوما سوداء مشوهة معقدة • استنكرت الأوراق عبثة ومجت تردده وتعثره •

والسؤال الملح « القصة الأسبوعية يا أستاذ ؟ » سؤال لفحه به خورشيد بلهجة جادة ثم جافة ثم منذرة « ياأستاذ •• سأضطر لشغل الصفحة بأى موضوع آخر » ••

وأسبوع وراء أسبوع وهو يفتش فى رأسه عن شىء يكتبه فلا يجـــده الا الخطوط السوداء والرسوم المشوهة وبحث عنها عندما تبين الا مناص من لقياها • • ولا سكينة ولا حياة الا برؤيتها • • سأل عنها فى دارها فقوبل بالأعذار • • فى زيارة صديقتها • • نائمة • • مريضة • • « طيب أخبريها بحضورى وسأمر باكر • • » •

وفى الصباح الباكر تكون قد خرجت •• ولاحقها بالتليفون لعل الصدفة البحتة توقعه فيها • • فلا تجيبه الا الخادم • • ذهبت الى الكوافير • • خرجت • • فى السوق • • تشترى ثوبا • • عند أبيها بالمحل •

— أهلا حافظ • • فيم غيابك ؟

— فى الدنيا •

— تبدو مهموما •

— قالوا أن سماء هنا •

— سماء ؟ • • علمى علمك • • يجوز حضرت ولمـا لم تجدنى ذهبت أو هربت ؟

ـ ولماذا تهرب ؟

ـ مني ؟ • • ياسيدى ! ! • • سعيد من يجد ما يهرب اليه •

ـ ونظل نهرب ثم نهرب حتى اذا تعبنا لم نجد الا أن نواجه من نهرب منه وعندئذ يكون كل شيء قد ضاع •

وضحك توفيق « وفى هذه الحال نعود للهروب مرة أخرى ونغرق فيه حتى الموت » •

وفجأة برز لهما يوسف الديب وقال بحده «أو نموت حتى نغرق» • أخذ حافظ باعتراض يوسف أما توفيق فكأن شيئا ما لم يحدث وقال له « أخيرا جئت •• عندك شغل كثير بالمخزن يجب الانتهاء منه بسرعة » •

« وأناعندى شغل أهم • • هنا » وأشار بأصبعه الى رأسه •

ساخرا « كان الله فى عونك » •

ـ سؤال واحد • • واحد لاغير • • لو أجد اجابته • • سؤال واحد •• لماذا سمانى يوسف ؟

وظل يردد عبارته وهو يبتعد تاركا حافظ مشفقا وتوفيق حانقا • •

وهمس حافظ « كل لديه سؤال يحيره •• أما أنا فلدى السؤال والجواب وما زالت فى أشد الحيرة » •

ولم يكف عنها بحثا •• ولم يجدها الا فى قلبه •• وذكراها تؤرقه وصورتها تخايله وعقله يخاطبها •

كفانى مطاردة • • مطارد بحاجتى لك • • مطارد بحبى لك • • وليس من معذب فى هذه الحياة مثل المطارد • • فهمتينى بالقدر الذى لم أبلغه • • واقتنعت بى بأكثر مما استطعت أن أصدقه •

أين أنت ؟ • • أين أنت ؟

وظل ملتصقا بأخبارها وحركاتها • • وعلم أنها أكثرت من التردد على النادى تمضى به نهارها وبعض أمسها • •

ارتعبت أذناه وطنت بضحكات هازئة ٠٠ أطلقها قلمه الراقد على الأوراق البيضاء بعد أن عبث ببعض الخطوط المتهالكة ٠ ٠ راح يفسرها ٠ ٠ اذهب الى هناك ولا تخشى الشباب والصبى ٠ ٠ وعد بها ٠ ٠ عد بها أيها القعيد ٠ ٠ ودار بصره وعقله باحثا عنها حتى وجدها بين جمع من الفتية والفتيات تخطر وتميس وترمى برأسها للخلف فى دل مذل ٠ ٠ وقد التفت بغلالة هفافة مثيرة ، وعبرته بنظرة عاتبة ثم مرقت صاخبة ضاحكة ٠ ٠ تعابثه ليتبعها ٠ ٠ ومد يده ليمسكها وتشنجت أصابعه ٠ ٠ لكن على الأوراق المهشمة والقلم المقصوف راح يبحث عنها يسبقه اليها الأمل ، فيرجوه أن يتمهل ويترفق به ٠٠ ويبطىء ليملأ به نفسه الفارغة ٠٠

وتابع سيره حتى أدرك النادى ٠ ٠ تردد وأحجم قبل أن يقترب من الباب ٠٠ ابتسم له الحارس مرحبا « الأولاد بالداخل منذ دقائق » ولما لم يجد غيره مقصودا بهذه الدعوة دخل ٠ تقدم الى الممرات يتحسس خطاه ٠ ٠ جو غريب لم يره من قبل ٠ ٠ أطفال تلعب وتمرح ٠ ٠ وشباب يعب الحياة عبا ومساحات خضراء ونساء ورجال يعاقرون الحديث واللغو ٠ ٠ وملاعب اتسعت للاعبين مهرة ومشجعين أمهر ٠ جال فى كل مكان ولا دليل له الا الأمل والحب ٠ وعاد مبتئسا رغم ابتسامة الحارس وهو يودعه ٠

لم يترك النادى يوما بلا تفتيش وتقصى ٠ ٠ طاف ودار وتلفت الى كل عابرة أو قادمة يرى فيها سماء ، حتى اذا اقتربت تبين مقدار شوقه اليها ٠ ٠ وازداد ظمأ لرؤيتها وازداد اصرارا للعثور عليها وكاد أن يقيم بين حدائق وملاعب النادى ٠ ٠ واعتاد المكان ، واعتاد البحث والسعى ٠ ٠ واذا لمح جمعا هرول نحوه لعلها بينهم ٠ ٠ واذا سمع عن حفل قصده لعلها تحضره ٠ ٠ واذا علم بمباراة كان أول القادمين وآخر المغادرين ٠ ٠ وأجهده التقصى وأعياه البحث وأضناه الارتقاب ٠

وسأله أبوها وقد لاحظا شقوته « أمازالت هاربا ؟ »

— ليتنى أستطيع لأستريح ٠

— تعال وأنا أعلمك هروبة ٠٠ تجد نفسك فى دنيا ثانية ٠

— واذا كان من تهرب منه يسرى فى دمك ؟

— تعال وجرب وأنا كفيل أطلعه من دمك ومن مخك ٠

ــ أستعذب الألم أستسيغ العذاب فيه ٠

ــ أحسن شيء تسافر ٠ ٠ تسافر مثل سماء ٠

اهتز بعنف وجحظت عيناه بصورة أخافت توفيق فردد له مؤكدا « ألا تصدقني ؟ ٠٠ سافرت مع النادى » ٠

وبصوت ينفث غلا « أين ؟ » ٠

ــ رحلة بحرية ٠ ٠ زيارة الموانى ٠ ٠ البحر المتوسط ؟ ٠ ٠ أو البحر الأحمر ؟ ٠ ٠ لا أدرى » ٠

هاج وعلا صوته « كيف لا تدرى ؟ ٠ ٠ كيف تدعها تذهب الى جهات بعيدة لاتعلمها ؟ » ٠

بدهشة « فيم الخوف وهى مع النادى ؟ » ٠

ــ وهل عرفت من معها بتلك الرحلة ؟ هل عرفت من هم المشرفين ؟ » ٠

ــ وهل بامكانى أن أقول لا ٠٠ ؟ كان زمان ٠

ــ كان يجب عليك أن تحذرها بما يحيط بتلك الرحلات من لهو وانطلاق

ــ لا تقلق عليها ٠

ــ لكن البحر خطير ٠ ٠ ساحر يفتت الصخر ٠ ٠ وتلك الموانى البوهيمية تصهر الجميع وتذهب بالعقول ٠

وضحك توفيق « لقد حركت شوقى ٠ ٠ سأذهب الرحلة القادمة » ٠

ــ كان الأفضل أن تذهب معها ٠

ــ أنت الذى تقول هذا ؟ أنت المنادى بالحرية ٠ ٠ ودع كل تجرب حياتها بنفسها ٠

ــ تجربها فى البيئة التى تعودت عليها ٠

ــ وماذا تريدنى أن أفعل ؟ أركب طائرة لاعود بها ؟

ــ آسف ·· أثرت مخاوفك ·· بمخاوفى ·

واقترب رجل من توفيق ، وما أن لمحه حتى نفض عنه كل هاجسه وخشية حركها حافظ ·· ثم سأل الرجل « وضبت القعدة ؟ »

ــ كله ضبط الضبط ·

ــ عاوز حاجة نظيفة ·· معنا الليلة ناس أكابر ·

ــ وحياتك · دورين وبعدها لن يعرفوا اذا كانوا أكابر أم أصاغر ·

سمع حافظ بعضا من الحديث ·· ولما تبين انه لا يتعلق بسماء تضجر وتعجل الخروج ·· ومضى متهدل الكيان والجسم والنفس والخواطر ·

٣٦

اشترت كل أعداد مجلة العرفاء الصادرة فى غيبتها ·· أمسكت بالعدد الأول ·· فالثانى ·· فالثالث على أمل ان تعثر عليه وتلقاه باحداها فلم تجده « أكان مريضا ؟ »

ثم تصفحت الرابع والخامس ·· لا شىء البته ولا كلمة اعتذار للقراء عن احتجابه ثم قلبت العدد السادس ·· « هل رفض الاستاذ خورشيد ما كتبه ؟ ·· ولم ؟ ·· هل انخفض المستوى ؟ هل فقد الاسلوب حيويته ؟ هل توقف ولم يكتب شيئا ؟ ·· وصادق ؟ هل بعد هذا الجهد يضيع كل شىء ويختفى صادق ؟ ·· والأنســة الهام ؟ هل انا الســبب ؟ ·· هل امتنع وتوقف لغيابى ؟ ·· أنه فى خطر ·· خطر النسيان والاندثار · لو ضــاع صادق لضاع هو الآخر ·· لابد أن أنقذه ·· لكنه يرفض حبى وقد يرفض مساعدتى ·· انه عنيد متعب بمنطقه العتيق وأسبابه المتجمدة ·

·· اقتربت منه كثيرا ·· قرأت ما يقرأ ·· وعشت مع أفكاره ·· واقتنعت به وبها ·· الا فكرته عن الأجيال والزمن ·· لو يدرك أن الزمن أحاسيس وليس سنين وأعوام ·· وكيف أعبر به فاصل الزمن الذى أقامه بيننا ؟ ·· هل أذهب اليه وأحاول من جديد ؟ ·· كلا ·· فقد تحركت اليه بما يكفى ·· لن أتقدم ·· لن أخطو خطوة واحدة ·· ليبدأ هو ·· ليحسم أمره بنفسه ليكف عن تردده ومنطقه الأعوج ·· وعلى أن أصبر ·· واذا كان يحبنى فسيخطو ويأتى ·· وهو يحبنى ، وعلى أن أنتظر ·· وأصمد ·· رغم مايعانيه بسببى ·· لكن اذا طال انتظارى ·· ومضى الوقت ·· أسبوع ·· وهو بهذه الحال من العزوف عن الكتابة ·· لن ينتظره خورشيد ·· سيبحث عن

آخر • • وهم كثيرون • • وينســـاه القراء ويلهون عنه • لابد أن أذكر القراء به •

وامتدت يدها الى القلم وخطت رسالة الى مجلة العرفاء •• قدمتم لنا قصة أسبوعية للكاتب الجديد صادق فؤاد • • ثم اختفى فجأة • • لعلكم تحثوه ليعاود الكتابة وليعود لقرائه المنتظرين على صفحات مجلتكم الغراء •• س • ت •

لكنها لم تستطع الانتظار حتى صدور المجلة وبها كلماتها المتسائلة وأمسكت بالتليفون « آلو • • الأستاذ خورشيد ؟ » •

ـ نعـــــم •

ـ منذ أسابيع ولا شيء ينشر للأستاذ صادق فؤاد •

ـ ألا يوجد غير صادق فؤاد •• أفندم • ماذا تريدين أنت أيضا ؟

وسألت وقد سرها رده « هل هناك من استفسر عنه غيرى ؟ » •

ـ كثيرات • • كثيرات • •أى خدمة • •

أعادت السماعة على الفور قبل أن تسمع المزيد • • وأحست بيد تقبض على قلبها تكاد توقف دقاته •• وهزت رأســها تنفض عن نفســها الظنون والشكوك • • « هو يحبنى • • أنا حبه الأول والأخير • • » •

لكنها لم تتحمل أى مزيد من الترهات وجرت الىأبيها فى متجره« بابا •• هل جاءك حافظ ؟ •

ـ مختف منذ مدة طويلة •• وكان آخر لقاء معه غريبا •

ـ كيـــف ؟

ـ لم يكن حافظ الذى أعرفه • • كان مريضا • • متعبا •

واستعجلت التفاصيل « مابه ؟ • • ما به ؟ » •

ـ وحدثنى عن الهروب من الحياة •

وصاحت « بابا • • ماذا قال بالضبط ؟ » •

ـ أراد الهروب من شيء يسرى فى دمه • • كان مريضا فعلا •

وراحت تفرك يدها وأفكارها فى عصبية • • ولاحظ توفيق وجومهـا فقال « ماكنت أظنك تقلقين لشيء • • عهدى بك ثابتة » •

لم تسمع تعليقه وظلت وحيدة متوحدة مع أفكارها . ولم تشعر به عندما ذهب لبعض مشاغله بالمحل . همست لنفسها تقطر عبارته « شيء يسرى فى دمه » ثم أردفت مع زفرة حزينة « وفى دمى » .

الجفن المؤرق والقلب المكدود ثم الدمع والشكوى والكبرياء فى صراع دائم لا يهدأ . لم يعد لديها الا كمية متضائلة من النشاط وكمية أضأل من الحماس وأحست بالحياة تتلاشى بداخلها . عانت عذابها به وعذابه بنفسه وهو يضرب فى صحرائه راكبا رأسه متقفيا عناده فى رحلة طويلة .. لا تعلم متى يعود .. وقد يعود اليها بفلول حافظ وذكرى صادق وحب ذاو .. حب كان من الممكن أن يكون عمرا كاملا .

وتطلعت الى حالها فوجدت نفسها مكبلة بقيوده .. قيود الانتظار وقيود فكرها فيه . فقدت حركتها ولم يكن لها الا أن تنتظر .

ثم عاد .. عاد محملا بأتربة وغبار كأنه قادم من ماض سحيق أو رحلة بعيدة ، جاء شاحب الوجه مشتت الشعر مهدل الملابس .. التوى منه رباط العنق احتجاجا وتضررا .. لكن نظراته لا معه ، بها وقدة الشوق ولهفة الحب .

قفزت من مكانها بمجرد رؤيته وهتفت « حافظ » .

اقتربت منه ودنت اليه حتى أوشكا أن تلامس . تمعن فيها ليراها ملايين المرات دفعة واحدة ورنت اليه تغرق فى عالمه الشارد حتى صار الوجود كله أملا ثم انبلج ثغرها عن ابتسامة مغردة بكل أنغام الربيع والحياة .. .. وهمست له « أهلا »

٣٧

مضت أسابيع الزواج الأولى وهو يترع الحب وينهل من ينابيع السعادة حتى انسربت البهجة الى أعماقه ، فرقت اللمسة وتواشجت الأنفاس لتهدىء شآبيب العاطفة وتلطف أوار الهوى .

لكن العقل الذى ضاق بذلك الخمول بدأ ينتفض ضاجرا يركل الراحة . بعث باشارات وومضات يحرك بها صاحبه ويقلقه فى سكينته . دفع بالأسئلة والصور والأخيلة حتى أفلح فى استثارته وأمسك بالقلم وأشرعه فى صدر ورقة بيضاء . جلست أمامه متشاغلة بكتاب .. وعليها غلالة

ملائكية تحلق له بها فى أجوائه السماوية ٠٠ لكن نوافذ الدور المترامية على صفحة الظلام تهمهم بأنوارها وتستحوذ على بصره ، وراح يتابعها وهى تغلق واحدة تلو الأخرى تاركة له النجوم البعيدة يستدعى بها أفكاره ٠

وراحت تلاحقه بنظراتها ، وأرست عليه عينيها ، وتابعت اختلاج القلم بين أصابعه وحركة شفتيه مرددة أفكاره ٠ جاشت بنفسها أمنية « ليلتهيكتب شيئا عبقريا عبقرية حبه ٠٠ غزيرا غزارة عاطفته ليملع ويرقى ٠٠ شىءنرقى به الحياة وندرك به القمم ٠٠ الأنوار لا تتألق الا من فوق القمم ٠٠ آه ٠٠ آمان والطريق صعب »

وتوقف بعد عبارة أو عبارتين وراح يؤكد الحروف ويبرز النقط والفواصل ٠٠ وورقة تلو ورقة وأفكاره مازالت تحاوره ماأن يهم باحداهاحتى تتلوى وتفلت منه ٠ واذا هدأ وسكن راودته عن نفسها تعابثه بأطرافها ، وما أن يلمسها حتى تفر هاربة ٠

وقذف بالورقة فى عنف أقلقها ، فنهضت والتصقت به لتعينه ٠

لم يقاوم ولم يستسلم ٠ وبهمسة ذات ايقاع يضفى معنى لكل كلمة « قد يفيدك التفكير بصوت عال ٠٠ جرب » وازاء صمته جذبته الى الأريكة وجلست معه وأمسكت بالقلم وقالت تعينه على فكره العاصى « ابدأ بأى شىء ٠٠ أطلق ما برأسك ٠٠ من هى ؟ ٠٠ من هو ؟ من هم ٠٠ ؟ دعهم يتحدثون بما يشاءون فتتشكل القصة » أجابها بصوت لا يمت له بصلة « ليست قصة بل حوارا مؤرقا له مخالب وأسنان » ٠

— حوار مفترس ؟

— أنه وحش يزوم برأسى ولا أعرف طريقة لاخراجه ٠

وغاب عنها لفترة وذهب وراء شياطينه وأشباحه ثم شرع يلقى عليها كلاما ٠٠ ما لبث أن تدفق كشلال هادر فكتبت ٠

— ألا تعرفنى ؟
— كيف أعرفك وأنت متخفية فى الظلام ؟
— قالوا عنى شريرة ٠
— لابد أنك جئت أمرا ادا ٠
— كشفت أفعالهم وأقوالهم ٠
— الغيبة والنميمة ؟

ــ كل شيء كان في مواجهتهم ٠

ــ ألم تخشيهم ؟

ــ هم الذين هابوني ٠

ــ جنية أم شيطانة ؟

ــ لا هذه ولا تلك ٠

وأقترب يقرأ ما أملى وهم بتمزيق الورقة لكنها انقذتها منه ٠

« لا بأس بها ٠٠ أتركها فقد تلجاء اليها فيما بعد » ٠

ردد متضجرا « وماذا بعد ؟ ٠٠ اني أدور حول نفسي منذ ساعات » ٠

ــ أنت في حاجة للراحة ٠

ــ لابد أن أقدم شيئا للمجلة باكر ٠

وظل حائرا لا يهدأ له بال ولا يرتاح له خاطر ٠ عاد الى مكتبه يدون شذرات يستجمع بها شتات فكره ٠٠ ومضى الوقت تباعا وغلبها النعاس وراحت في اغفاءة ٠٠لم تدر أهي ثوان أم دقائق أم ساعات عندما استيقظت على صوت يهر ٠٠ يفرغ ما برأسه في ضراوة وقطرات العرق تنضح من جبينه ٠٠ حتى رمى بالقلم ونحى الورق ثم قام الى الفراش وسقط في نوم عميق ٠ تناولت الأوراق وتمتمت ٠

ــ أفصحي عن نفسك ٠٠ تقدمي الى النور ٠

ــ لو رأيتني لملئت مني رعبا ٠

ــ أمشوهة أنت أم عجوز شمطاء ؟

ــ لا هذا ولا تلك وأن أشاعوا عني ذلك ٠

ــ ومن هم ؟

ــ من لا يرغبون رؤية وجهي ؟

ــ انك تثيرين فضولي بغموضك ٠

ــ بل أنا واضحة كالشمس ٠

ــ الشمس معروفة منذ أزمنة سحيقة ٠

ـ الزمن لا وجود له عندى • أنه وهم ابتدعه الانسان ليتعقل حركته ونشاطه والمتغيرات على الواقع والموجودات •

ـ أكاد أجن •

ـ أين المـاضى ؟ •• لا وجود الا فى حاضرك الواعى •• فاذا لم تع به صار عدما •

ـ أنى أخافك •

ـ مثلهم ؟

ـ لهم الحق وكل الحق •

ـ اتدافع عنهم ؟

ـ بل أدافع عن الحق •• والحقيقة •

ـ صه •• لا تنبس بها •• لا تذكرها على لسانك •

ـ اذن فأنت تهابين الحقيقة •

ـ بل أنا الحقيقة •

وكشفت عن نفسها فسقط الرجل بلا حراك كعود يابس جف منذ آلاف السنين •

وهمست سماء « شىء جديد محير •• مثير للجدل العنيف » •

ثم ابتسمت هانئة متصورة ما يمكن أن يحدثه من نقاش •• لكنها نحت الورق عنها فقد لسعها توقيعة •• حافظ عبد المعبود •

وفى الصباح احتضنته من كلماته •• الأوراق على صدرها المتصـدى وقالت قولا ممزوجا شهدا وخمرا « الحوار مدهش •• الفكره رائعة •• العبارة مركزه •• لكن الـ •• » •

ـ لابد أن أسفر عن نفسي وأظهر للناس •

ـ الاسم لاقيمه له •• الأهم الموضوع •

ـ كيف أكتب عن الحقيقة وأنا أخفى أمرى عنهم •

ـ ما زلت فى أول الطـريق ومازلت فى حاجـة لتجنب أى هـزة عن شخصك •

وأنصت متفهما كلامها وتردد للحظة لكنها مالت عليه بحجة جديدة « وعندما يعتاد القارىء أسلوبك ويمكنه تميزه فلن تحتاج عندئذ لأى توقيع » .

وتمعن فى عينيها يستشف نواياها فوجد الرجاء والحب والربيع فأخذ القلم وكتب صادق فؤاد . ومالت عليه أكثر وشاركها شعرها ما أودعته باذنه « أحببت فيك العقل والفكر » فضرب بالقلم على حافظ عبد المعبود ، وأردفت « قبل أن أحب فيك الحب » .

الفصل الحادى عشر

٣٨

جهزت الشرفة لجلسة حالمة .. الأضاءة خافتة ، والموسيقى هادئة . والسماء صافية والنجوم تختلج والقمر لم يبزغ بعد .. ترك فرصة للمحبين قبل أن يشى بهم .. وفتحت ذراعيها للنسيم تعب منه عبا « ألا تشم .. أكاد أشم الحياة » .

ـ سحرك ليل القاهرة ؟

ـ بل سحرنى ليلك ونهارك .

اتجه اليها بموجة عاطفية عالية فابتعدت عنه فى دلال .. أنشته معابثتها وأحس بنفسه أكثر انطلاقا بعد ذلك الضيق الذى ألم به فى حفل الليلة .

أعدت له طبقا من المأكولات الخفيفة « لم تأكل كما يجب فى الحفل » .

ـ كان كل شىء يتوقف فى فمى حتى الكلام .

ـ رغم الضوضاء والهرج فقد كان حفلا مبهجا .

واستطردت تحاجيه « هذه المجتمعات ضرورية لك .. أنت فى حاجة لعون الرابطة والزمالة » .

ـ زمالة الصدفة البحتة ؟

ـ البحتة ؟

وراح يلقى عليها شـيئا ما « انك تجهلين ما أخبرنى به خورشـيد ٠٠ تعرف يا صادق أنت وليد صدفة أدبيـة ٠٠ فى اجتماع مجلس المجلة طلب رئيس التحرير أفساح المجال للكتاب الشبان ٠٠ وكانت قصتك أول عمل جديد وصلنى فنشرتها ٠٠ وكنت صادق الكاتب الصاعد » ٠

ورانت عليـه وجومة مرهقـة فأسرعت اليه تمحوها « لقد أصـبحت منهم » ٠

ـ عندما أدخل عليهم أشعر بأنى لست من عشيرتهم وأفقد سجيتى ٠

ـ أمر متوقع ٠٠ لـكن تذكر ضرورة الاحتكاك بهم ٠الا أضـاعوك فى دائرة النسيان ٠

ـ وما فائدة وجودى بينهم صامتا ومتفرجا ؟

ـ لقد أجهدتنى الليلة لأشدك الى النقاش ٠٠ ولم تعبأ بالأستاذ ضو

ـ أنه ساخر لاذع فى زهو مقرف ٠

ـ بالعكس كان لطيفا خاصة عنـدما انحـاز الى جانبـك حين هاجمك بعضهم ٠

هز رأسـه رافضـا قولهـا فأردفت « حتى الأسـتاذ عباس الذى انتقدك بشدة كان مفيدا ، فهو لن يرتاح حتى ينشر ما قاله فى جريدته ويثير حولك معركة أدبية ٠

ناولته كوب الليمون المثلجة ، واستمرت تعزف له لحن الحفل البيهج « أما الاستاذ فتحى فقد سألنى بخبث ٠٠ من كان الأسبق اليك ، صادق الكاتب أم صادق الانسان ٠٠لم أ جبه وتركته يخمن فقال لى أنك مفجرة طاقاتة لقد وجد نفسه بك » ٠

والتصقت به مدلهة « تعرف ان كلامه فكرنى بأحلام المراهقة ٠٠ عندما كنت أقرأ قصـة لفرنسواز ساجان أتخيل نفسى أديبـة مشـهورة ولى كتب وعليها اسمى ٠٠ بل واخترت لنفسى اسما جـديدا ٠٠ سـماء الوادى ٠٠ كانت أحلام لذيذه » ٠

ودست يدها فى ذراعه وارتاحت برأسها على كتفه واستطردت مغرقة فى حفلها ٠٠ « وفستانى الأخضر أثار اعجاب الأستاذ صفوت ٠٠ وقلت له أنه لونى المفضل منذ رشفة الحب الخالدة ٠٠أتمنى أن ينشر ذلك فى أخباره الخاطفة

وتسلل اليه وهن فتر حماسه وشملته بلاده ذهنية وحسية لم تجد معها قبلتها الدافئة مفردة له معزوفة المساء ‥ ومضت الى الداخل يحدوها أمل أن يتبعها لكنه تركها الى صور شدته لأيام مضت ·

المصعد الهامد والدور الخامس وجمعية الرواد ‥ ثم دعوة لمناقشة أعماله الأخيرة ‥ ولغط وجدال ‥

— دائما المصعد وبالذات يوم الاجتماع ·

— ألا من حل حاسم مع صاحب العمارة ؟

— أشك فى حضور الأستاذ ضو ·

— والاجتماع ؟

— لاتعدل كراهيته للمصعد الا كراهيته للوجودية ·

— شيء مضحك ‥ وما علاقتهما ببعضهما ؟

— يقول أن الأول يضيق عليه الدنيا فيشغل فيها أقل حيز ‥ أما الثانية فتصرفه عن الحياة العريضة الى الذاتية المحصورة فى الأنا ·

— علينا بالحلول الذاتية ‥ نكلف وفدنا المسافر الى بيروت بشراء قطع الغيار اللازمة للمصعد ·

— ومن المتبرع الكريم ؟

— جميع المنتفعين بالمصعد ‥ أنا ‥ أنت ‥ ومن فى العمارة من منهندسين وأطباء ومقاولين وخلافهم ·

— أنت متفائل جدا ‥ لن يدفع أحد قرشا ·

— ما رأيك فى شكوى جماعية الى المحافظة ؟

— لن يوقعها أحد ‥ شقيق صاحب العمارة مفتش ضرائب المنطقة ‥ وأرباح المهنة ‥ والتقدير الجزافى ·

— والسكان الآخرون ؟

— سكان الأدوار السفلى لن يضيرهم توقف المصعد ، وسكان الأدوار العليا يفضلون العيش فى سلام ·

واخرجه من نفسه نداء شحاذ « يارب ياعالم بالحال ·· يارب ياعالم بالحال » فنظر الى ساعته فاذا هى جاوزت منتصف الليل وآختفت نجوم كثيرة مع ضياء القمر ولم يجسر على الظهور الا الأقرب والأسطع ·

وتعلقت أنظاره بصفحة الليل ومحت فيه كل رغبة فى مغادرة الشرفة واستنس مع خواطره وتداعت أمامه بقية الصور ·

— اليك بالمفيد ·· مشروع جديد لنشر التراث الأوربى ·· وسبعون ألف جنيها للترجمة ·

— مبلغ بسيط وسيتكالب عليه كثيرون ·

— أسرع قبل أن تفوتك الفرصة ·

— فاتت منذ سنين ·

— ياخسارتك ·· تعفف وتنزهت ·

— حسبت أنها ما كانت تبيد أبدا ·

— عن نفسى سأختار عشر كتب من عيون الأدب ·

— تذكر أن رئيس المشروع له مذهب وعقيدة ·

— لا تخف على ·· سأقدم له كتبا مما يهوى ويؤمن بها ·

— ومن سيكون مراجعك فى الترجمة ؟

— أحب أن تكون أنت المراجع ·

— أنا مغضوب عليه ·

— لدى فكرة ·· الأستاذ س من اللامعين ومتخم بالعمل ·

— هل يضيرك التعاون معه ؟

— وهل يرضى بالمناصفة ؟

— ولم لا ؟ طالما أن اسمه سيظهر على كل كتاب ولن يبذل جهدا كبيرا ·

وألتفت أحدهم اليه « اعتقد يا استاذ صادق أن الأستاذ ضو لن يحضر » ·

ـ اقترح تأجيل الاجتماع للأسبوع القادم ٠

ـ بل لحين اصلاح المصعد ٠

ـ موافقون ٠٠ موافقون ٠٠ موافقون ٠

ولم تفلح لذعة باردة أن تدخله وظل بالشرفـة ٠ لم يكن ما انتـابه حيرة ليلية ولا سهدة عاطفية ، لكنها حال مهموم بعد أن ولج تلك المجتمعات والانخراط فيها ، وتلاحقت عليه المواقف تهزه من الداخل وافتقد الاستقرار الذى كانت تشعره به ٠٠ يوم لم يكن لها من نشاط عداه ٠

أقبلت على مثل تلك الاجتماعات مدفوعة بالسعادة التى تكتنفها منذ أن تتأهب وتتجهز لتلك اللقاءات ٠٠ فتنتقى لها أجمل ما عندها وترتدى آنق أثوابها ٠٠ لم تقبل الا أن تكون أكثر من فاتنة وتطالبه ببعض الشروح عن موضوع النـدوة ٠٠ وهناك تسـتحوذ على انتباه الحـاضرين فيلتفون حولها وتزداد تهللا وتألقا ويتحول هو الى واحد من المتحلقين ٠٠ وقد يبقى قريبا منها وقد يفضل ركنا هادئا مع أى من الحاضرين يسادره ويحادثه ٠

ولمح نيزكا شاردا يسحب خلفه ذيلا متلاشيا ٠٠ ظل يتابعة حتى اختفى فى الظلام ٠٠

٠٠ ورأيت الوقت المراق بين هؤلاء القوم ٠٠ وأصبحت اتجنبهم ٠٠ ولمـاذا اتبـاعد وعدتى الـكلمة مثلهم ؟ ٠٠ لقد صرت منهم ٠٠ فلم لا أنهج نهجهم وأنحو نحوهم ؟٠

لم لا التزم بالتزاماتهم ؟ ٠٠ أحرصا على حريتى ؟ وأين هى حريتى وأنا الجيل المكدود المتصاعد مع الواقع فى اختلاج ؟ ٠٠ أنا حافظ المشـتبك مع صادق ٠٠ المكبل بأصفاده فى تململ خافت ٠٠ تململ فقد القدرة على الصراخ ٠٠ أنا حافظ المقتنع بالصمت الحكيم والتـأمل المريح ٠٠ يرقب ٠٠ يلمح ٠٠ يرى ٠٠ يسـتنبط يستقرىء ٠٠ ولا يفصح ٠٠ وقـد ينبس أو يهمس ٠٠ وأفضل من هذا كله الخلوة ٠٠ والسكون ٠

وانقذته من أفكاره المحمومة هزة رقيقة وعبارة معاتبة « قاربنا الفجر ألن تنام » فنهض منقادا ٠

٣٩

افترشت الأرض فى فتنة عجزت منامتها الحريرية أن تداريها فكشفت عن بعضها وأخفت البعض الآخر ليتصوره الرائى ·· ولم يكن ثمـة من راء غيره ·· جلس قبالتها يسبح بين موجات مرحها العارمة وينتشى بضحكاتها المجلجلة ·· وبينهما كوم من الخطابات ·· أكثر من أى عدد جاءه من القراء والمعجبين · أمسكت بحفنة منها بكلتا يديها تعرضها عليه تؤكد أملها الذى سعت لتحقيقه · وقبلته حيثما سقطت شـفتاها وهو سعيد بهـذا الهوس الحبيب ·· وناجى خيالاته « كم أنت ساحرة هنا ·· بعيدا عن الأضواء » ·

وشرعت تفتح الخطابات فى نهم وقرأت « الأستاذ صـادق فؤاد ·· ترددت كثيرا فى الكتابة اليك لكن قصتك الأخيرة « ذات الظلام العـديدة » أثارت نقاشا بيننا حول شخصية البطلة وقد أكد بعضنا أنها فنانة مشهورة لها من السطوة والنفوذ فى دوائر الأعلام والصحافة ما يردك عن الافصاح عن شخصيتها ·· فهل لك أن تنفى تلك المظنة عنك لأننا نثق بك » ·

وتناولت آخر وقرأت « الكاتب الكبير صـادق فـؤاد » اعترض قائلا « جعلنى بسرعة من الكبار ·· أنه رجل طيب » ·

— ولم لا ؟ ·· من منهم أرسل اليه مثل هذا العدد من الخطابات ؟

— هذه خطابات سببها الفضول والسؤال عن شـخصية البطلة ولولا ذلك لمـا وصلنى ألا أقل القليل ·

— مهما كانت الأسباب فقد استطعت أن تثيرهم ·

— فكرة خورشيد الشيطانية ·

وأستأنفت سماع نغمتها اللذيذة « هذه القصة سبق لى أن أرسلتها الى مجلة العرفاء منذ شهور لكنك غيرت فى الأسلوب قليلا ·· أتحداك أن تعلن ذلك ·· أتحداك » وألتفتت اليه « مجنون بلا شك » ·

— أو توارد خواطر ·

— اسمع ياسيدى ·· شكوى وعليها طابع دمغة ·

أخـذها منهـا قرأها بسرعة ثم طواها وقال « شكوى ضـد مستشفى الرمد ·· سأبعث بها الى المجلة أو أذهب الى مدير المشتشفى » ·

— وهل تعرفه ؟

— أبدا ·· ويحتمل أن يكون من قرائى ·

— استخدم صفتك الصحفية وأصطحب معك مصورا فتقابل بمنتهى الاحترام ·

— لكنى لست صحفيا ·· ولا داعى للتظاهر ·

وأمسكت بأول خطاب طالته أناملها وقرأت « أهنئك على السيدة ذات الظلال العديدة ·· لكنك لم توضح سر اختيارك ذلك الأسم » ·

وألتفتت اليه وقالته « سؤال وجيه » ·

— اذا أفصح الكاتب عما يريد قالوا أنه لا يترك شيئا لذكاء القارىء·· واذا تجنب الافاضة قالوا الفكرة غامضة ·

— هذه المرة ·· الحق معهم ·

— الشخصية المهمة دائما لها ظلال عديدة لـكثرة مصـادر الأضـواء المسلطة عليها ·· فاذا أطفئت ·· أختفت الظلال والأصل ·

وفتحت خطابا ثم أردفت « مشكلة غرامية » ·

— دعيها ·

— يالك من قاسى ·

— هى من اختصاص محرر قلوب جريحة ·

وأمسكت بآخر متميز اللون والشكل وقالت « يبدو أنه مرسل لك من معجبة ·· أصبح لك معجبات كثيرات ؟ » ·

— افتحية ·

— أنه شخصى ·· مرسل الى حافظ ·

أخذه منها··قلبه ظهرا لوجهه في حيرة وردد « لم يحدث أن راسلنى زميل أو قريب ·· غريبة » وفتحه بأصابع تختلج وترتعش ·

« عمى حافظ » ·

أرجفه النداء ونظر اليها فوجدها منغمسة فى خطاب آخر ·

تحياتى الخالصة للجميع وبالذات ماما ٠

آسفة لعدم وفائى بوعدى بزيارتك ٠٠ استغرقنى العمل وأصبحت كثيرة التنقل من بيروت الى روما الى لندن ٠٠ لا تحسدنى فانا أمكث بها ساعات قليلة لا تكفى للتعرف على المدينة وأهلها ٠٠

أحاول أن أبقى دائما معلقة بين السماء والأرض فقد سئمت العمل على الأرض حيث يسبب لى زى المضيفة كثيرا من المتاعب ، وعادة ما تبدأ بدعوة عشاء راقص ٠ لكن نفس الزى يشعرنى بالتفوق فى السماء وأحس بالراحة والأمان ٠٠ فأنا أستطيع أن أقدم وأن أعطى ٠٠ أعطى الأطمئنان للخائف والأمل لليائس والابتسامة للقلق والصبر للمتعجل ٠ تمر بى نماذج بشرية خلت من التصنع أو العدوان لسبب بسيط لأنهم معلقون بين الأرض والسماء ٠٠ وما أن ٠٠

وقطعت عليه قراءته بصيحة مرحة « دعوة من نادى الثقافة بمناسبة نهاية الموسم الأدبى » ٠

ونظر اليها وعقله مشدود بأختها وقالت « نادى الثقافة ؟ ألا تعرفه ؟ ٠٠ تصور انى تمنيت زيارته منذ أسبوع ٠٠ وها قد جاءتنا دعوة رسمية » ٠

ـ واذا كنا لم نحضر موسمهم الثقافى فكيف نذهب حفلهم الختامى ؟

ـ للقراء وللمركزك الأدبى عليك حق ولم يعد لك أن تتصرف على مزاجك ٠

وأومأ لها برأسه ليعود الى شقيقتها ٠

«وما أن يلمسوا الأرض حتى يعودوا الى أصولهم ٠ وتذهب عنهم الصورة الملائكية البريئة التى كانوا عليها وهم فى السماء ٠٠ أسمع طرقا على الباب ٠٠ غالبا زوجى ٠٠ آسفة مضطرة لانهاء خطابى ٠٠ جاء فى محاولة ليردنى اليه ٠٠ والعودة الى حياته الملتوية ٠٠ والظريف أو القبيح أنه بدأ بدعوتى على عشاء راقص ٠٠ لكن لا تخف وأطمئن فأنا أعرف طريقى جيدا ٠٠ ولن أفرط ٠٠ سلامى للجميع وقبلاتى ٠٠ بهيرة ٠

ورفع رأسه المجهدة وسألته « ما هذا الخطاب المهم ؟ » ٠

ـ قصة مؤلمة ٠٠ فتاة كانت مرفهة ثم تحولت الى عاملة تناضل لحياة كريمة ٠

ـ وما الجديد فى الموضوع ؟ شىء يتكرر فى مجتمعنا كثيرا ٠

ـ عندما تحكى المشكلة بصدق وأمانة يشتد الانفعال ويتوثق الارتباط بها ٠

ـ وتتحرك القريحة لقصة جديدة ٠

ـ ألا يهمك من المشاعر الانسانية الا ما نستطيع أن نأخذه منها ؟

ـ الفنان يستمد مادته منها ٠

ـ هناك ما نحترمه ولا نمسه بأقلامنا ٠

ـ أنك تثيرنى لقراءة تلك الرسالة ٠

وهو يودعها جيبه « ليس الآن ٠٠ ليس الا»

الفصل الثانى عشر

٤٠

بدت فى قمة حسنها وبهائها ٠ أخرجت نفسها فى صورة من ابتداعها ٠ رفعت شعرها الى أعلا لتكشف عن عنق دقيق وجيد دافىء ٠ تعمدت ألا تنال من مسطحه الخمرى بأى حلى ، وأكتفت بقطعة ماسية وحيدة غرستها فى شعرها الفاحم ٠ ورسمت عينيها بخطوط كثيفة السواد أضفت عليها اتساعا وزادتها سنى وسناء ٠

ومشت الىجواره والفتنة ترفل داخل فستانها فى انتعاشة وبهجة وزهو يخايل العيون فترنو اليها أما معجبة وأما متسائلة ٠

وأقبل خورشيد « أهلا مدام صادق ٠٠ شرفت حفلنا » ثم نظر الى حافظ « أما أنت فمن الأسرة والحفل حفلك » قالت بعد أن دارت بعينها تمسح المكان والحاضرين « أرى زحاما شديدا » ٠

ـ الجميع ترقبوه منذ تأجيله لثالث مرة ٠

ـ أرى أنصارا للثقافة كثيرين ٠

عقب حافظ ساخرا « والمنهل العذب شديد الزحام » ٠

وتقدم نحوهم الأستاذ ضو تسبقه ابتسامة عريضة أبتلعت وجهه ٠

قال رمو يلثم أناملها « لولا أنى عشت زوال الملكية لقلت أميرة ‎..‏ ولنجعلك الير أميرة الأدب » .

أطربتها العبارة لكن خورشيد اعترض « تذكر أننا فى مجتمع ديمقراطى بلا ألقاب » .

لم يحفل الأستاذ ضو بقوله ومضى فى ابتهالاته « ولو كنت أؤمن بتناسخ الأرواح لحسبتك كليوباترا » .

وعقب خورشيد « وأين الديالكتيك والمادية التاريخية ؟ » .

وتدخلت سماء فقالت « أن طبائع الرجال أصبحت محيرة هذه الأيام . اذا كانوا فى مجال الفن والأدب تحدثوا عن المجتمع وعلله واذا واجهوها لجأوا الى الشعر والموسيقى » .

وبلهجة تستدر العطف قال الاستاذ ضو « أرجو أن تستثنينى من هذه القاعدة فأنا راهب من رهبان الجمال أسخر ليلى ونهارى متأملا أو باحثا عنه » .

وقال خورشيد « طبعا فى مسابقات الوجوه السينمائية الجديدة » .

متجاهلا كل ما قيل استطرد ضو « وقد تسبينى نظرة ناعسة ولفتة رقيقة » .

علقت سماء فى خبث لذيذ « هذا شأن المحب المبتدء » .

ـ وأحيانا يسحرنى صوت جميل .

ـ وماذا أيضا ؟

ـ والعيون التى بها حور قتلننا ولم يدركن قتلانا .

ـ هذه أعراض شاعر .

وقال حافظ وقد أضجره الحديث « أو زجال بارع » .

ودافعت سماء عنه « انى لأدهش لكل هذه المواهب ‎..‏ أنك تحمل روح فنان وخيال شاعر » .

وعقب حافظ متهكما « وقلم ناقد وعقل مفكر » .

« وعضلات أبوللو » .

قالها خورشيد وهو يسرع بالابتعاد وضحكاته العالية تستفز الاستاذ ضو ليلحق به وينتقم منه لكن سؤالا ناعما ذا نبرة مغردة ألزمته به مكانه وقالت « وما رأيك فى الحب الروحى ؟ » ٠

تأملها لحظة وأطرق فى اخلاده « الحب لابد أن يعبر عن نفسه بطريقة مادية ٠٠ لكن ذلك النوع من الحب الخيالى لا يتفق مع الظواهر الاجتماعية السائدة فى عصرنا » ٠

وقال حافظ « الحب ٠٠ العاطفة ٠٠ أشياء مازالت غامضة غموض النفس البشرية » ٠

وضحك الأستاذ ضو رافضا أحكام حافظ « كل شىء يتضح وينجلى اذا فسرناه تفسيرا علميا ماديا » ٠

ـ انك تعمم بشعارات كثر ترديدها فى كل مناسبة ٠

ـ الحب الخيـالى ٠٠ أو الروحى ٠٠ أسـلوب عاطفى ظهر ابان ثورة المثقفين والحرفيين على الاقطاع ٠٠ واحتاج تطور المجتمع الى ذلك النوع من الحب القائم على الحساسية والخيال والأنفعال ٠٠ لكن اليوم نحن فى عصر مضطرب تتزاحم فيه الرغبات والمطامع وتتنازعه المتناقضات والمشاحنات ٠٠ ولا مجال الا للحب المتصدى المرتبط بالمجتمع ومتاعبه » ٠

وصاحت سماء وقد أضجرها النقاش « ٠٠ رأسى تصدعت ٠٠ أريد أن أستمع الى ألأخطل الجديد ٠٠ انه هناك يلقى بأشعاره ٠٠ هيا بنا » ٠

واعترض حافظ « المجتمع هو المتغير ٠٠ والغرائز والعاطفة والمشاعر هى الثابتة فى الانسان منذ الأزل ، وما ينتابها من تطور هو بعض السيطرة والتهذيب والتحكم فيها ٠٠ فلا يجوز أن نربط الثابت بالمتغير وبالعكس ٠٠ » ٠

ولم يستطع الأستاذ ضو أن يجادل ولاحقه حافظ « وعموما فما نعتقده اليوم قد يدحضه العقل ويهدمه العلم غدا ٠ ولا شىء ثابت قاطع ولا حتمية لفكرة ولا دوام لنظرية محددة فى عالمنا المتغير » ٠

وتصاعد تصفيق شديد من ركن الصالة فقالت سماء وهى تهم بالتحرك « الجميع هناك يسمعون الشعر ٠٠ ولن أنتظر دقيقة واحدة » وصحبها حافظ الى الجمع الملتف ٠٠ وسعت بالابتسامة وبالتسلل الى أن تصدرت الحلقة ٠٠

ووقفت في المقدمة . لم تنصت للشاعر بل اهتمت بملاحظة الموجودات تضاهي وتقارن .. ثم ابتسمت له راضية عن نفسها وابتسم لها مقدرا تذوقها للشعر العذب .

٤١

جلس الى مكتبه على أمل أن يعثر على شيء يدونه .. للقصة المطلوبة منه .. أراد أن يكتب .. لكن عزت الكلمة وتمنعت عليه العبارة .

حالة من العسرة أمسكت برأسه طوال الشهور الماضية .. نضوب بعد فيض . . وشح بعد وفرة وأصبحت الكتابة عملية شاقة مجهدة الا انه استطاع بعد لأي أن يملأ صفحة وقرأها . . حوار سقيم . . ومعان فقيرة.. ونادى فكره واسجلب خيالاته لعله يمسك بتلابيبها .. ونهض يذرع الغرفة ثم عاد ليقرأ ما كتبه فلم يرضه ومزقه .. وتعلق بصره بالصفحات البيضاء .

ما هذا الجدب ؟ .. ما هذا الجفاف ؟ .. أين أشباح قصصي القديمة ماذا حدث لي .. كانت أفكاري مطاوعة ما أن أستدعيها حتى تفد وتدفع بالموقف الساكن لأن يتحرك ويفيض القلم .. وكانت هي تحفزني وتحثني .. ولا يمر يوم الا وتسألني عن مراحل القصة . وكانت تقدم لي نواحي جديدة وجميلة . أحس بكل مشاعرها وعقلها وايمانها معي . وكنت أشتعل بهذا الايمان فأكتب وأتخيلها بين سطوري . وكم تعذبت معي والقصة في المخاض ثم وهي تشكل في عسر ثم عندما أتوه في دوامة الحوار أو عندما تفلت مني في النهاية .. حتى اذا لمحت كلمة صادق تذيل الخاتمة غمرتني بسعادتها وأشبعتني تقبيلا وأسبح في أنطلاقاتها وقد ذات بيننا الزمن والوجود .

لم أجد في ذلك شيئا غريبا ، فهي التي زرعت في صادقا حتى غدا ثالثنا يتنفس ويعيش بيننا .. ترى فيه نجاحها وذكاءها وطموحها وفي أقصى نشوتها كانت تناديني « صدوقي .. و » وارتدنا المجتمع الأدبي ، وصارت احدي زهراته اليانعة وأكدت وجودها بشخصيتها الجذابة ولبقاتها المبدعة.. وأصبحت مبرزة وكأنها ولدت لتعيش بين هؤلاء القوم .. ولم أغضب سواء لاهتمامها بهم أو لاهتمامهم بها فقد كان على أن امنحها من وقت لآخر تفضيلا يميزها عن الآخريات حتى أحفظها لحبي وتتلهى به عن اختلاف الفصول .. ربيعها وخريفي ، . . خريفي الذي التقطت عنه همسا ولمحت عنه في العيون غمزا .

وازدادت تألقا ونضارة ، وازدادت شغفا بتلك المنتديات الثقافية • جنت بعبارات المديح الملتوية فى مضامين الاعجاب والغزل وأسكرها الثناء وأثملها الهتاف لحسنها ولرأيها •• وعندئذ ترضى عن نفسها وعنى وتجهز لى عشاء الشرفة والاضاءة الخافتة والموسيقى الهادئة والشعر المنسدل •• مع عطر سخى الأنوثة وحديث هامس ونداء صامت •• فأشدو أنغامها المجنونة •• ثم استبد بها الداء •• داء الزهو والحديث الرشيق والمقولات الملاح • وتكاثر الملتفون وأصبح لها شخصـيتها المرموقة وانكمشت جلسة الشرفة • ولم يبق منها الا قبلات عابرة وأمست قصـتى بطاقة دعوة لنقاش • ووسيلة نشاطها الاجتماعى وصرت أنا وقلمى من ضروريات حياتها •

وعند ما فتر حماسى لكل شىء ، عاتبتنى لكسلى ونضوب خيالى « لابد أن تكتب ليظل صادق عالقا بالأذهان » وأدركت أنى أسير فى طريق بدأته بأكذوبة صغيرة نمت واشتد عودها •• وأضحى صادق شيئا ثقيلا بغيضا يجسد لى كل طموحها وذاتيتها •• ويظهر لى ضعفى واستسلامى وأصبحت مثل الجندى المجهول الذى ورى التراب فى مكان ما •• لكنى ما زلت حيا أشاهد التراب وهو يهال على •

وخرج حافظ الى الشرفة ليهـدىء من ذلك العراك الناشب برأسه •• المـائدة خاوية والمقاعد صامتة والظلمة شاملة والشرفة خالية •• الا من شبح قابع هناك • فوجىء به وصاح « من هناك ؟ •• من أنت ؟ •

ــ وهل عرفت نفسك ؟ لتعرف من أنا •

ــ هذه مشكلتى •• وسبب حيرتى •

ــ لا تكن ألا نفسك •

ــ أنى أقرب ما أكون الى حافظ ••

ــ وفيم الحيرة اذن ؟ •

ــ لكنى أصدم بمثول صادق وحضـوره المستمر وأحس بالانشطار •

ــ يولد الانسان مشطورا وعليه أن يرأب الصدع •

ــ وهل استطعت أن ترأبه ؟

ــ كلا بل زدته عمقا ؟

ــ فلماذا تنصحنى بما لم تستطعه ؟

(٥)

ـ لأجنبك شقوتى •• وتخرج من الظلام •

ـ الظلام أحيانا أرحم من بصيص نجاهد للرؤية به •

ـ مهما كانت رؤيتك واضحة أو غير واضحة فقد أدمنت صادقا ولن تقلع عنه وعنها •

ـ ألا ترانى غاضبا عليها وعليه ؟

ـ لم تغضب عليها الا لعجزك عن مواجهة المنافسين •

ـ أي منافسين ؟

ـ انك تعرفهم أكثر منى •

ـ هل حضرت هنا لتعذبنى ؟

ـ بل لأعينك •

ـ ومن أنت ؟ •• ولماذا تهتم بأمرى ؟ •• من أنت •

ـ • • • • • • • • •

ـ من أنت ؟ •• من أنت ؟

وهجم على المقعد يمسك به ويكشف أمره فما وجد الاسترنه •• وكان قد خلعها ونسيها بالشرفة •

وسقط على نفس المقعد وهو يلهث هواجسه ويزفر خيالاته •

وأصبحت غرفته ملازه وموطنه •• يجلس يأكل ، وينام ، يأرق ، يتألم ، يتخيل •• كل شيء يفعله بها •• والكتب المبعثرة والأوراق البيضاء تستنكر الأوضاع والجهد المضاع والفكر المراق والضمير المدان والعقل الملام •

وبحركة عفوية امتدت يده الى كتاب •• « عالم الغد •• أى غد ونحن معذبون بعالم اليوم » وطاف بعينه على الأخرى المتناثرة ، فأحنقه صمتها العميق •• « وما فائدة كل ذلك ؟ هل هى للتسرية ؟ أم لنقيم بها عالما على الورق ؟ ونضع له قيما من صنع أهوائنا ؟ أم ستائر نتوارى خلفها ؟ أم طقوس كهنوتنا ؟ •• أم لنتخذها محاريب نحن رهبانها ؟

والكتب ما زالت فى صمتها المتحدى · · وثار وهاج وأطاح بها الى الأرض فى غل محموم · · فجاءت مهرعة · · أفزعها الصوت ونظرت اليه مشفقة ·· مضى عليه مدة طويلة وهو بهذه المعاناة والاضطراب ·· عزف عن الأكل ·· عزف عن الناس ·· عزف عن كل شىء ·

سألته مشيرة الى الضحايا الراقدة على الأرض « ماهذا ؟ »

فى غضب شديد « ابعديها عنى ·· لم أعد أطيقها » انحنت تجمعها وقالت » لاتحملها عصيان فكرك · · الأفضل لك أن تخرج وتتريض · · « ·

ـ أين ؟ · · ولماذا ؟

ـ الأماكن كثيرة · · أو هناك على شاطئك ·

وكأنه يخاطب نفسه « بدافع العادة ؟ ·· أم بتدافع القطيع ؟ »

ـ العادة وسيلة الانسان ليتكيف مع الحياة ويألفها ·

ـ وما قيمة حياة نكرر أنفسنا فيها كل يوم ؟ · · سيان أن نعيشها دهرا أو يوما ·

ـ حتى واقعها المألوف المتكرر نستطيع أن نستمتع به ونتكيف معه ·

ـ أليس لديك الا التوافق مع الواقع ؟ ·· والتوافق مع المجتمع ؟ ·· التوافق مع صادق ؟

ـ من المستحيل أن ننظر الى الحياة الجديدة بعيون قديمة ·

ـ وأى جديد تقصدين ؟

ـ كل ما حولنا جديد · · حتى أنت أصبحت انسانا جديدا ·

ـ جديد زائف ·

ـ كيف ، وقد أصبح لك قراء ومعجبون واسم يتردد على الألسن ·
وعقب بصوت لاهث يعذبه شعور بالانحدار « قراء ومعجبون مكذوب عليهم » ·

ـ الا زلت تفكر فى شكليات لايهتم بها أحد ؟

ـ أصبحت أمج ما أفعله وأكره ما أكتبه وأشعر بأنى أحرث فى الرمال وأتمنى أن أكون شيئا أخر أجدى وأوضح ·· لى وللجميع ·

ـ تريد أن تحطم نفسك وتحطمنى معك ٠

ـ هل اذا أعلنت حقيقة أمرى على الناس تتحطمين ؟

ـ قطعا ٠ ٠ لقد عرفنى الجميع مدام صادق ، فأى سخرية عند ما أظهر لهم باسم جديد ٠ ٠ مدام حافظ عبد المعبود ٠ ٠ نكتة الموسم ٠

ـ ألا يثقل عليك خداع الناس باسم مزيف ٠

ـ وما شأنهم بذلك ٠ ٠ ثم أنه لم يحاول واحد أن يسألك من أنت ؟

وأين نشأت ؟ ٠ ٠ وأين تعلمت ؟ وماهى مصادر ثقافتك ٠ ٠ وماهى منابع تجربتك ؟ ٠ ٠ أمر لايهمهم ٠ ٠ ولن يسعوا له ٠

ـ أشعر بأنى أذنبت فى حق القراء ٠

ـ هذا أمر يخصنى ويخصك فقط ٠ ٠

ـ لا خاص ولا عام فى حياتى طالما أمسكت بالقلم ٠ ٠ بينى وبينهم عقد غير مكتوب أساسه الكلمة المخلصة ومحوره الثقة ٠ ٠ فهل أنقض هذا العقد ؟

ـ انك تقيم قضية من شيء لا وجود له الا فى خيالك ٠

ـ أقــدم لهم خلجــات نفسى وأشرح لهم أدق احساســاتى ٠٠ وأطرح عليهم فكرى ثم أخفى عنهم حقيقتى ٠ ٠ كيف يستوى هذا وذاك ؟

ـ وما الضرر فى ذلك ؟

ـ ماذا لو اكتشفوا أنى خدعتهم ؟ ٠٠ ولماذا أصدمهم ؟ لمــاذا أسبب لهم هذا الألم ؟ ٠ ٠ لمــاذا أفقد ثقتهم ؟ ٠ ٠ لا أستطيع أن أعيش الا الحقيقة ٠

ـ حتى اذا أعلنتهم بأنك حافظ فانهم لن يذكروك الا بصادق ٠

ـ ليفعلوا ما يحلو لهم ٠ ٠ لكن بمحض اختيارهم ٠

ولم تدر أنها ظلت واقفة كل هذا الوقت حاملة الكتب ، ٠ ٠ ولوحت بها ثائرة « وأين أنا من هذا كله أنا شريكة فى هذا الاسم ٠ ٠ لى فيه مالك فيه ٠٠ اشتهرت به ودخلت المجتمع به ، فكيف تخلعنى منه ؟ بأى حق ؟ ٠٠ بأى حق ؟ » ثم قذفت بالكتب الى الأرض ٠

واقترب منها منفعلا « بحق الأمانة ٠٠ بحق الثقة التى منحوها لنا » ٠

ـ وهل فكرت فى النتائج المحتملة لهذا التغيير ؟

ـ انى لا أستطيع احتمال الحياة داخل هذا الصادق فؤاد ٠

ـ تذكر أنك مازلت فى منتصف الطريق وقد يهدم حافظ ما بناه صادق

ـ ما بناه صادق ؟ ٠٠ ماذا فعل صادق الا أن يعيش عالة على حافظ ومجهوده وعرقه ٠

ـ أكاد أجن ٠٠ أنك لست فى وعيك ٠

ـ بل فى تمام قدراتى ٠

ـ وهل تدرك أنك ستكون أضحوكة الهازلين وسخرية الناقمين ؟

ـ لا يهمنى أحدا منهم ٠٠ وأستطيع أن أعتزلهم ٠

ـ الكاتب لا يمكنه أن يعيش الا بالناس والاندماج فيهم ٠٠ وهذه هى مشكلتك وليس صادقا أو حافظا ٠

ـ مشكلتى فى ضميرى ٠

ـ وأنا أريد أن أعيش حياتى ٠٠ وانى لأتحمل وأرضى بما هو كائن على أمل الى الأفضل ٠٠ الى حياة أحسن ٠٠ أريد أن أجعل بيتى صالونا للأدباء ٠٠ نلتقى بهم هنا ٠٠ نجتمع بهم هنا ٠٠ حتى تصبح علما من الأعلام ٠

ـ وأمنيتى أن أعيش فى سلام ٠٠ سلام النفس ٠
أن الحياة أوسع وأرحب من أن نضيعها بين المواكب الزائفة ٠

ـ وسلامى أنا ؟ ٠٠ وحياتى أنا ٠٠ أليست فى تقديرك واعتبارك ؟

ـ سلامتك الحقيقة فى البحث عن نفسك وعما يجب أن تكونى عليه وليس ما نعيش به ٠٠ ان الضباب الذى يحيط بك يمنع عنك الرؤية الواضحة ٠٠ أنك فى حاجة الى هزة تحرك وجدانك ٠٠ لتكتشفين

قالت بامتعاض « هذا يصلح حوار لقصة » ٠

لم يأبه لقولها واستطرد « أنك فى حاجة الى وقفة تأمل ٠٠ وقفة فى القاع وليس على القمة ٠٠ ولعلنا نجد الطريق ٠٠ أو ندخل فرن الانصهار الذاتى ٠٠ فيتساقط الخبث ويبقى منا المعدن الأصيل والجوهر الثمين ٠٠ ونتخلص من خداع النفس ٠

ـ انك تضحكنى ٠٠ انى أعتقد تماما فيم أفعله ٠

ـ انك خادعة ومخدوعة ٠

ـ كيف أكون خادعة ومخدوعة فى نفس الوقت ؟

ـ دائما ما يحدث ذلك ٠ ٠ المخدوع لا يرضى أن يكون هو الوحيد فيتحول تلقائيا الى مخادع وداعية من دعاة الخديعة ٠ ٠ الا اذا أدرك نفسه ٠

ـ لا أفهمك ٠

ـ لقد اعتبرت هذا الزحام والبريق المحيط بك هو بهجة الحياة التى يجب أن تستعين لها وأقنعت نفسك بذلك ثم تحولت الى لأسعى سعيك ٠ ٠ السعادة الحقة بداخلنا عند ما تتسق أفعالنا مع أفكارنا فى اخلاص ونقاء ٠

ـ انك لم تعد تحبنى ٠

ـ بل أحبك الآن أكثر مما سبق ٠ ٠ لأنى أعلم لماذا أحبك ٠

ـ كيف وأنت غير مقتنع بى وبأسلوبى فى الحياة ٠

ـ الحب أقوى من كل شىء ٠ ٠ ولا يقدر بما أحققه لك من رغبات ٠٠ بل بالجهد الذى أبذله لأصحبك الى الاتجاه السليم ٠

ـ وأين كانت مخبأة كل تلك الآراء والأفكار ؟

ـ فى جزء غائر منى ثم انتصبت فجأة أمامى ٠

ـ وما الذى حركها من مكانها ؟

ـ التردى ٠ ٠ التردى السريع ٠

ـ انك ترهقنى ٠ ٠ أتعبتنى ٠

ـ لو كنا نتردى ببطء ٠ ٠ لو كنا ننزلق ببطء لما شعرنا بالهوة التى ننحدر اليها ولكن اذا حدث كل شىء بسرعة فاننا نتيقظ بقوة الانهيار وبدفعة السقوط وتتضح لنا جميع المعالم ونرى كل شىء ٠

ـ واذا كانت السقطة قاتلة ؟

ـ تكون عندئذ عظة وعبرة لغيرنا ٠ ٠ وفى هذا عزاء عن جهلنا ٠

ـ انك تدمرنى ٠٠ انك تدمرنى ٠

ـ بل أريد لك السلامة ٠

ـ أى سلامة وعقلى يكاد ينفجر ؟ أى سلامة وانت تهز كل حياتى ؟ أى سلامة وأن تزلزل سعادتى ٠

اندفعت الى النافذة وفتحتها على مصرعيها بعنف وصاحت « أنظر الى الدنيا ٠٠ أخرج اليها ٠٠ مارس الحياة ٠٠ عش مع الناس ٠٠ أتسمع هذه الضوضاء ٠٠ أنهم يضحكون ويبكون ٠٠ يعيشون يومهم بكل قوة ٠٠ أخرج من عالمك الخيالى ٠٠ أخرج لتعيش حياتك وأعيشها ٠٠ أخرج ٠٠ أخرج » ٠

وسقطت على الأرض تبكى ٠٠ وتقدم اليها لكن لم تمتد يده ولم يربت عليها كما اعتاد ولم يمسح دموعها كما ألف ٠

وأولاها ظهره ومضى ٠٠ استدار عنها مستعدا لأن يعبر حتى الصحراء الجرداء وحيدا ٠

الفصل الثالث عشر

٤٢

تريث حافظ قليلا على الطريق الملتوى الصاعد الى القلعة فى حدة لا تعدلها الا حدة النزال الدائرة برأسه ٠٠ أسترجع أنفاسه واستأنف السير ٠٠ وحنفية المياة التالفة ما زالت تغذي مستنقع المياه وتزيد رقعته وعربة الرش واقفة لتمتلىء بالماء وحصانها زاد هزالا ونحولا وأطفال الحى فى انتظاره ليجروا خلفه ٠٠

وواصل حافظ الصعود ٠٠ لا يعني أين تدب قدماه ، فأصطدم بعابر وتمتم له معتذرا ٠٠ ثم أحتك بشجرة كادت أن تخمش وجهه ٠٠ ثم دفعه أحد باعة الأرصفة بعيدا عن بضاعته ٠ تخبط فى خطاه ٠٠ والناس ٠٠ وأفكاره ٠٠

وهزته يد قوية التفت الى صاحبها وفغر فاهه مصدوما بماض منزو « يوسف الديب ؟ » وظل يتمعن فيه ٠٠ عيناه زائغتان فى هالتين من السواد المضني وشحوب دونه شحوب مخطوطاته القديمة ٠ ووقفا وجها لوجه ٠ وأستطاع حافظ أن يخرج بعض صوته ليسأله « ماذا جاء بك هنا ؟ » ٠

ـ جئت لأعرف السر ٠

ـ ألديك أنت الآخر ما تبحث عنه ؟٠

وبقبضته القوية أمسك بكتف حافظ وسأله « فيك من يكتم السر ؟» وهز له رأسه ايجابا بعد أن خلص كتفه ٠٠ وتلفت يوسف حوله ثم همس فى حذر « لماذا سمانى أبى « يوسف » بينما هو الديب ؟ لماذا ٠٠ هل تستطيع أن تجيب ؟ ٠

ـ حبا فى سيدنا يوسف ٠

وبمرارة حاقدة « بل ليتبرأ منى براءة الذئب من دم يوسف » ٠

أذهلت حافظ الفكرة وأرعبته فقال « انك تتخيل أمورا غير صحيحة »٠

ـ أراد أن يتهم أمى اتهاما صامتا ٠٠ اتهاما لم يعلنه فاطلق على يوسف ٠

ـ أو تمنى أن تكون وزيرا مثله أو أمينا مثله ٠

ـ أذكر جيدا شجاره الدائم مع أمى وغضبها المستمر فى منزل أبيها ٠

هذه حال كثير من الأسر ٠

ـ وعلمت فيما بعد أن ذلك العراك ما كان ينشب قبل مولدى ٠

ـ لا تجهد نفسك بهذه الأفكار السوداء ٠

ـ أنى ذاهب الى قبرها لعلها ترشدنى أو تفضى الى بالسر ٠

ـ عليك أن ترضى بأبوتك التى رعتك وكفلتك ٠

ـ لا أنكر فضله على وما زالت أحبه لكنى أريد أن أعرف أبى الذى رمانى فى الحيرة وتسبب فى شقائى ٠

ثم دار بعينيه هنا وهناك وعقب « سأبحث عنه حتى أجده » ٠

ـ لن تصل الى نتيجة وستدمر حياتك ٠

ـ وما قيمتها وأنا لا أعرف أبسط ما يخصنى ٠٠ ؟

ـ وما فائدة ذلك وقد أنكرك سنين طويلة ٠

ـ لأهدأ ٠٠ لأرتاح ٠

ـ ألا تحتمل أنه يرغب فى أبقاء أمره خافيا ؟

ـ حتى عنى أنا ؟ ٠٠ أنا أبنه ؟ ٠٠ أنا قطعة منه ؟ ٠

ــ ولم لا تفرض أنه يجنبك تعاسة تشقى بها لو عرفته ؟

ــ لاشيء أتعس من ألا تعرف من أنت ومن تكون •

ارتجف حافظ بشدة وأستمر يوسف يقرع طبوله « ولماذا يريد أن يحيرني •• ؟ ألم تقلقه حالى ؟ ألم يرق لعذابي ؟ •

ــ قد يكون خائفا منك ؟ •• أو من ذنبه ؟

ــ نعم لا يختبيء الا الضعيف العاجز عن الظهور •

انتقض حافظ انتقاضة جلعته يعوى عواء داخليا وراح يحملق فى يوسف يرى فيه شبحا قادما من تحت الأرض لينبش ما عليها •• واستطاع أن يلم بعض نفسه ونصحه « وفر جهدك ••• ولا تنظر الى الخلف ••• لا فائدة ••• تأكد أنه لا فائدة » وأهاجت نصيحته يوسف فزعق « لابد أن أعرفه •• لابد أن أعرف من هو •••• سأبحث عنه •••• سأبحث عنه •••• سأبحث عنه » وجرى وصوته يتبعه الصدى فى مطاردة للمجهول •

وبقى حافظ فى مكانه مشفقا متألما ••• وصورته أمامه تتضاءل كلما بعد حتى تحول الى مجرد نقطة •••• نقطة قاتمة على الطريق الملتوى كعلامة استفهام كبرى ••• لسؤال لا جواب له

••• نعم هناك تناقض الأسمين ••• يوسف •• ثم الديب • رفض أن يسلم بهذا التناقض وسعى ليقطع الشك باليقين ليجد أباه ثم نفسه ••• ربما كانت حيرته سبب فى اختلال عقله وربما أختلق المسألة وأغرق نفسه تفكيرا فيها حتى أختلطت عليه الحقيقة بالخيال •• حدث مع بعض الأدباء والكتاب نفس الخلط •• أقاموا شخوص قصصهم وجادلوها وحدثوها ، بل نعاشوا معها وتجسدوها وثبتت فى رؤوسهم حتى اذا انتهت القصة عجزوا عن التخلص منهم فتبلبل فكرهم وأهتز كل شيء •

ويشتبك الواقع بتهيئوات من صنعهم ومنهم من انتحر عندما افقد التمييز بين الكائن والخيال •• وما أدق الفاصل بينهما •• ومشكلة يوسف الديب فى أسمه ولقبه فأنشطر بهما •• انه بائس وشقى •• مثل أى مشطور •• وأنا ؟ •• وأنا ؟ •• ألست مشطورا باسمين •• اسمين متصارعين فى كيان واحد •• أنا حافظ أمين قسم المراجع التاريخية ورئيس لجنة تسجيل وفهرسة

التراث الأدبى ٠٠ الحائر في دنيا الظلام بقبو من أقبية القلعة ٠٠ بركن مترب وبين جدران عفنة منهارة ٠٠ لايدرى به أحد ٠٠ تماما مثل الكتب والمخطوطات التى أعمل فيها ٠٠ ظلت مجهولة مئات السنين ٠٠ وكان من المحتمل أن تبقى مئات أخرى لولا ذلك المدير الطموح الحصيف ٠

أنا حافظ الصامت العامل خلف الجدران ٠٠ حافر الصخر بحثا عن الماء ٠٠ عن سلسال نقى أرتوى به ٠ وأنا صادق الوجه الآخر الذى أقبل عليه المجتمع وغرق هو فيه ٠٠ يرد مورده وينهل من منهله ٠٠ ويتلون بلونه ٠٠ أنا صادق الكاتب المتفهم لعصره الواعى بتجربة الانسان صاحب العبارة المسنونة هاتك السلبية ، الغامس بقلمه فى مستنقع الحياة ٠٠ ألقاب طنانه وصفات عظيمة أهيلت بوفرة حتى دفنت تحتها حافظا وكاد أن يندثر ويضيع ٠٠ فى غياهب النسيان ٠٠ ينس ٠٠ وينسوه ٠٠ وأنساه ٠٠ نعم أنساه ٠٠ ويختفى داخل القادم الجديد ٠٠ داخل صادق الفحل القوى ٠٠ الأمر الناهى ٠٠ لاراد لرغباته ونزواته ٠٠ لا يفارقنا ولا يبارحنا حتى فى أعنف لحظات الغرام ٠٠ يزاحم ويكاتف ليحتل مكانا مميزا ٠٠ واذا أطل عليها حافظ فى استحياء مسكين ٠٠ أنطفأت شعلتها وذهبت عنها الصبوة والوقدة وأضطر لأن أنحيه جانبا ٠٠ عندئذ ٠٠ وعندئذ فقط تعيش معى وهجة الحب المضطرمة

٠٠ وصرت الكاتب اللامع المرموق بلا جهد وبلا عرق ٠٠ المرتدى رداء الشهرة ٠٠ المرتقى القمة ٠٠ المحاط بأنظار الاعجاب ٠٠ المتألق فى مجتمع البالونات الزاهية الألوان ٠٠ مجتمع بدت فيه التفاهات الصغيرة والحياة شيئا واحد ٠٠ فضاع الشفق فى الغسق وشحبت الأشجار والأزهار فى مهرجان الألوان ٠

هل بعت حافظا بصادق ؟ ٠٠ هل بعته لأجل حبها وغرامها ؟ ومن منا لا يبيع نفسه ؟ ٠٠ هى ٠٠ وباعت نفسها لمجد صادق وشهرته ٠٠ وأبوها يبيع نفسه كل يوم ٠٠ وأمها باعت نفسها لزوجها منذ عشرات السنين ٠٠ وبهيرة باعت منذ ٠٠ لا ٠٠ لم تبع شيئا ٠٠ رفضت الصفقة ٠٠ رفضت الاستسلام وما زالت تكافح بين الأرض والسماء ٠٠ وأنا ٠٠ وأنا لن أبيع نفسى ٠٠سأوقف الصفقة ٠٠ سأوقف البيع

٠٠ يجب أن أناقش الموضوع بكل هدوء حتى لا أفقد كل شىء ٠٠ لأفكر بثبات بلا انفعال ٠٠ أنا ما زلت حافظا ٠٠ أذهب كل يوم الى عملى وأوقع يوميا

على الحضور والانصراف فى شخص حافظ ‥ زملائى ينادونى به ‥ ملف خدمتى وبه صورتى باسم حافظ عبد المعبود ‥ وبطاقتى الشخصية باسمى ‥ وهاهى تؤكد لى ذلك ها هى ‥ أين هى ؟ ‥ أين ذهبت ؟ غريبة ؟ ‥ ليست معى ‥ آه ‥ قد أكون نسيتها بالبدلة الأخرى ؟ ‥ أم فقدتها بالقلعة ؟ ‥ ربما تركتها هناك ؟ سأجدها حتما ‥ لكن الفئران ‥ قد تفتك بها وتقرضها ٠

‥ لا ‥ هى بالتـأكيد بالمنزل ‥ سـأبحث عنها بمجرد عودتى ‥ سأبحث عنها ‥ سأبحث عنها ٠

آه ٠ ٠ نفس كلمات يوسف الديب ٠ ٠ رددها وهو يجرى ٠ ٠ أكاد افقـد عقلى ٠ ٠ أم فقـدته مثله ؟ ٠ ٠ لا ٠ ٠ لا ما زلت متحكمـا فى تصرفاتى ‥ فأنا لم أجر مثله ‥ لم أعد عدوه ‥ خطواتى مازالت وئيده ومتزنة ‥ ووجهى ؟ ‥ عضـلاته لا تهتز ولا تختلج ‥ وأصـابعى ؟ ‥ هاهى لاترتعش ‥ ولا أبحلق ولا أجحظ ٠ مازلت متماسكا ‥ أفكر بترو وتأن ‥ لا ‥ لست مثله ٠

وحتى لو ضاعت البطاقة أستطيع أن أستخرج غيرها ‥ مشوار بسيط الى الشرطة ، وتنتهى متاعبى وشكوكى ، ويذهب قلقى ٠

مفيدة تلك البطاقات ٠ تدل المرء على نفسه وتدل الآخرين عليه فلا يضيع فى زحام الحياة ‥ أو زحام النفس ‥ كيف عاش الناس آلاف السنين بلا بطاقات ‥ ومضوا دورة الحياة بلا حاجة لها ‥ قضوها بسلام مطمئنين‥ ولماذا نحن فى مسيس الحاجة لها ؟ ‥ هل استبد بنا الشك وفقدنا الثقة وتهنا ، فلا نهتدى الا بها ‥ وصرنا حملة بطاقات ‥ أم تحولنا الى مجرد بطاقات ‥ وأرقام وبصمة من ابهام ؟

وذهب الى قسم الشرطة ‥ صف طـويل ومـوكب عظيم ٠ يرتدون السراويل والجلاليب والجميع يبحثون عن بطاقة مثله ‥ ؟ « لا ‥ لا ‥ أنا دونهم أبحث عن نفسى فى بطاقة » ٠

ـ استاذ صادق ‥ أستاذ صادق ٠

ونظر صوب المنادى فاذا به ضابط الشرطة المختص بالبطاقات ٠ ارتبك حافظ وحاول أن يتجاهله لكنه اقترب منه ودعاه « اتفضل ‥ استريح هنـا وأخرجه من مكانه وقاده الى مقعد وقال « وقد تعجب لمعرفتى لك ‥ لكننى قابلتك منذ سنة عند الأستاذ خورشيد » ٠

ـ ذاكرتك قوية ٠

وضحك الضابط « ذاكرة شرطة » ثم سأله « أين الاستمارة ·· هاتها لأنجزهالك » ·

ـ لا ·· متشكر متشكر ·

ـ ألم تحررها بعد ؟

ـ أرجوك أن تؤدى عملك وأستطيع أن أنتظر دورى ·

ـ دقائق وأعود لك ·

وبقى حافظ مع أفكاره ·

لقد عرفتنى ·· كيف أخبره بأنى حافظ ·· شىء محير ·· بل هى فرصتى لأحكى له القصة كاملة ويكون أول من أطلعه على الحقيقة بصفته الرسمية ·· هو المسئول عن تأكيد شخصية المواطنين ·· لكنه سيخطر خورشيد وينشر الخبر فى الصحف ويعلم به القراء ويسقطونى من تقديرهم ·· كنت أود أن أعلمهم بنفسى حتى يكون ذلك شفيعا لى عندهم فاحتفظ بحبهم وثقتهم ·· موقف حرج ·· ماذا أفعل ؟

ولم لا استخرجها على أنى صادق ؟ ·· وهذا الضابط يعرفنى ·· ومن السهل بواسطته انهاء كل الاجراءات ·· وسماء ستفرح وتغبط ، لكنها تزوجت حافظا وقد يبطل زواجنـا بتغيير اسمى ·· لن تهتم ·· كلها فى نظرهـا شكليات ·· بل سترحب بالأمر ·· لكن حافظ ؟ ·· هل أخفيه الى الأبد ؟ وهل أنا الذى اخترته لنفسى ؟ انه أبى ·· حتى الندبة التى على خده الأيسر ·· أورثنى اياها ·· وخبرته وتجاربه وقيمه هل نسيتها ؟ ·· خبرته وقيمه التى تصارعنى فى حاضرى ؟ ·· أتتنكر له ؟ أتجحد أفضاله ·· وكان آخرها يوم أن جمع لك من الأهل والجيران ثمانين جنيها لتنقذ بها نفسك وشرفك ·· وتبعد عنك تهمة الاختلاس · هل نسيت كل ذلك ؟ ·· يالك من جاحد ·

ـ اتفضل يا أستاذ صادق ·· الاستمارة ·· كتبت بعض البيانات وأكمل الباقى بمعرفتك وأنا فى انتظارك ·

ومضى الضابط الى عمله وقرأ حافظ « الاسم صادق فؤاد ·· المهنة كاتب ·· محل العمل مجلة العرفاء ١٩ شارع رفاعة الطهطاوى ··

رباه ما العمل لو حررتها لكان ذلك مخالفة وتزويرا فى أوراق رسمية وأحاسب قانونا ·· تخشى القانون ولا تخشى القراء ؟ ·· ترهب القانون لأنه

قوة تقاضى وتعاقب .. لكن لا تخاف القراء لأنهم لا يملكون الا الانصراف عنك وأسقاطك فى متاهات السلبية .. لا .. لا ..

ونهض خارجا والضابط يناديه « يا أستاذ صادق .. دقيقة .. أفرغ لك .. انتظر .. انتظر .. » .

وسار فى الطريق وأشباحه تطارده .. مدته ساقاه بسرعة لم يعهدها من قبل .. ولم يوقفه الا صريخا عاليا وأطارات عربة تكاد تسحقه تحتها .. ثم رجل يطل من نافذة العربة يشتم ويسب وحافظ يهمس له معتذرا بكلمات تتعثر على شفتيه . واستمر فى سيره المهرول

.. كنت على وشك الموت . ليته دهمنى وصرعنى واسترحت وينتهى هذا العذاب .. لكنى بلا بطاقة ؟ .. مجهول ؟ لن يتبينوا شخصيتى .. وما قيمة أن أموت مجهولا أو معروفا طالما سيحتوينى الصمت والظلام ؟ .. وما أهمية حياة لا أعلم كنهها ولا أدرى بنفسى فيها ؟ ليته صرعنى .

.. ولو كنت ببطاقة صادق . لأسرعت الى الشرطة وعربة النجدة والأسعاف والصحفيون والمصورون .. وأكون خبر الصباح البارز .. وسترتدى هى الأسود وقد يعجبها لما فيه من غموض مثير .. وقد ترضيها النعيات الكثيرة .. لكن سيزداد حولها الفرسان والشهام المستعدون لأى خدمة ..

واذا كنت ببطاقة حافظ ربما أنزف دمى قبل أن يدركنى الأطباء والأسعاف .. وعلى أحسن الفروض قد أصل غرفة حوادث القصر العينى وأنتظر الطبيب الهاجع فى الظهيرة المرهقة .. انها مرهقة حقا .. وأنا مرهق بكل ظهيرة وبكل صباح وبكل مساء .. منهك .. أجهدنى البحث .. البحث عن مصير .. أى مصير لأمضى فيه السنين .. وأتدثر به فى هذا الليل البهيم .

٤٣

وجاءته وقد أضناها عزوفه . أوجعتها عزلته شهورا وراء شهور لا يغادر غرفته الا قليلا .. أنصرف عن كل مظاهر الحياة وزهد فيها .. وأرادت أن تعيد اليه ذكرى قد تهديه اليها والى عمله .. وأرادت أن تحركه من نقطة اللاحياة التى سكن عندها ..

ـ أراك فى حاجة لرحلة .. تستعيد بها نفسك وقلمك .

ـ حصل .. وأدت الرحلة أغراضها .

وضحكت ضحكة صاخبة لتنسف ذلك الوجوم الطويل ، لكنك لم تترك الغرفة يوما واحدا ؟ »

ـ كانت رحلة ذهنية .

ـ وحدك ؟

ـ كان من الضرورة أن أذهب وحدى .

ـ وبأى حال عدت ؟

ـ عدت متوحد الذات متوحد الكيان

ـ ماذا تعنى ؟

ـ رجعت بحياة ذات معنى ومفهوم واحد .

ـ انك تتكلم بالألغاز .

ـ سأخلع ثيابى التنكرية بلا أطماع وبلا خوف .

ـ أى أطماع وأى خوف ؟

ـ الأطماع الظامئة الى صادق اللامع والخوف من قوقعة حافظ .

ـ ألا زلت مصرا ؟

ـ ليس لى من طريق آخر

ـ لماذا لا تستقيل من عملك بالقلعة ؟

بجفاء « ولماذا » ؟ .

ـ لترتاح وتذهب متاعبك ومتاعبى .

ـ العمل لا يتعبنى .

ـ بل يشقيك وهو سر ما أنت فيه .. تذهب ألف سنة الى الوراء بين تلك الكتب والمخطوطات ثم تعود لتواجه عالم اليوم .. ومن هنا كان اضطرابك

ـ لا داعى لأن نعلل متاعبنا بأسباب تاريخية بينما العيب فينا .

ـ لن أتركك تسحق نفسك وكل شىء .

ـ أرجوك لا تثيرى جدلا لا طائل من ورائه .

— بل من حقى ·· أنا شريكتك فى كل شيء ·

— فى صادق فقط ·

— بل فى كل شيء ·· جاهدت معك حتى أصبح لنا مكانة فى الحياة ، نطل منها على السعادة ·

— نظرتك للسعادة فى حاجة الى مراجعة ·

— بل فهمك للدنيا وواقعها هو الذى فى حاجة الى تصحيح ··

— حدث ورددت كل شيء الى أصله ·· أو أنا فى سبيلى لذلك ·

واقتربت منه وأمسكت بيده تهزها ·· تهز فيه الأمل « صحيح ·· أتعنى ما أقول ؟ ·· ستعود للكتابة ؟ »

— ربما ؟

— متى ؟

— بعد أن يطمئن قلبى ·

وذهبت وهى على أمل أن يتحفها بقصة يرجع بها اليها والى نفسه والى القراء بعد أن ندر ما ينشر له واهتز مركزه فى مجلة العرفاء ·

٤٤

استقبله خورشيد مرحبا بابتسامة تضارع أكبر مانشت يمكن أن يطبعه على مجلته وحياه « أهلا بكاتبنا الكسول ·· اتفضل » وبعد وشفة من فنجان قهوة بردها الأنشغال أو الاهمال قال « تصور جاءنى من أخبرنى أنه لاحظ شبها كبيرا بين أسلوبك وكاتب جديد أسمه ·· حامد ·· » ·

— حافظ ·· حافظ عبد المعبود

— تمام ·· وقد قرأت قصته التى أرسلها أخيرا ·· أسمها ·

— بلا زمان بلا مكان

وبحلق خورشيد مشدوها « ومن أدراك بها ؟ »

— · · · · · · · ·

ـ وفعلا وجدت تقاربا فى الأسلوب لكن هناك فرق شاسع فى الأفكار والحبكة الفنية .. تصور أن هذا المقلد تبلغ به الجرأة أن يطالبنا بالنشر له .

ـ ولماذا لا تحقق له رغبته ؟ .

ـ أنك طيب القلب .

ـ لقد جئت خصيصا لأحدثك فى هذا الموضوع .

ـ تصور أنه طلب مقابلتى ؟

ـ وماذا فى ذلك ؟

ـ يعنى كل من كتب سطرين له حق مقابلتى وأنا لا أجد وقتا لأكتب العمود الأسبوعى .. وأضطررت الأسبوع الماضى أن أذهب الى الرست هاوس . وحتى هناك عرفنى بعض الفتيان والفتيات وسؤال وجواب فأذا بى بالاسكندرية . وطال الحديث على مائدة العشاء ثم تركونى لأواجه قائمة الحساب .

ـ ؟ ؟ ! !

ـ وكان حسابا مؤلما . جعلته موضوع العمود الأسبوعى .

ـ أريد أن أحدثك ع ..

ـ وكتبت أن شبابنا يسرف فى الأكل وأنها عادة برجوازية .

ـ أريد أن أكلمك عن حاف

ـ ويجب ألاقلاع عنها .

ـ حافظ عبد المعبود وال

ـ لا تهتم به .. أتركه لى .. سأجعله لا يمسك القلم مرة أخرى . أرتبك حافظ وقال « لا .. لا .. ما أردتك لهذا » .

ـ أنك طيب القلب . لكن منافسيك وحاسديك كثيرون وهم مستعدون للتشهير بك ومهاجمتك بحافظ .

ـ أنه مظلوم معى .. وأريدك أن تفهم حقيقة الموضوع .

ـ أى حقيقة ؟ وأنت تضع السكين على عنقك .. دع أمره لى .

ـ أرجوك أن تنصت لى خمس دقائق ٠

ـ على فكرة ٠٠ قبل أن أنس ٠٠ أريد منك قصة قصيرة بلا عنوان وستخصص جائزة كبيرة لاحسن عنوان يقدمه قارىء ٠

ـ اسمعنى أولا ٠٠حافظ هذا يهمنى جدا و ٠٠٠

ـ اسمعنى أنت ٠٠ رئيس التحرير مهتم بهذه المسابقة ليرفع التوزيع ٠

وصاح فجأة جهاز التليتوك « ياخورشيد ٠٠ أنت كتبت نفس الفكرة منذ أسبوعين » حول خورشيد زر الجهاز وأجاب « ليس تماما ٠٠ هى معالجة جديدة » واستطرد الجهاز الآمر « وأين مسابقة بلاعنوان ؟ » ٠

وأجاب خورشيد وهو ينظر الى حافظ « اتفقت مع الأستاذ صادق وقريبا سيقدم القصة الأولى »

ـ طيب أطلع ٠٠ أريدك ٠

وقف خورشيد وبحث عن بعض الأوراق ورتبها فى دوسيه أنيق خط عليه بالمداد الأحمر « للعرض على رئيس التحرير » ٠

والتفت نحو حافظ « سمعت بأذناك ٠٠ شد حيلك معى » ٠

وخرج حافظ ومعه المحاولة التى بدأها ليفصح عن الجزء الخافى منه ٠

لم تنل هذه المحاولة الفاشلة من عزمه ٠٠ بل زادته تصميما فى وأد هذا الوهم الذى أقتحم حياته ٠

فكر فى طريقة أخرى ٠٠ الموت البطىء ٠ يسقطه فى الحضيض رويدا رويدا ٠ بعض القصص الهزيلة ٠٠ بلا قوام ٠٠ بلا رأس ٠٠ بلا أطراف ٠٠ بلا فكرة ٠ عبارات مشوهة وحديث ممجوج ٠٠ وأختار لها أسما سمجا « السمك لا يخرج من الماء مرتين »

وبعث بها الى خورشيد لعلها تستفز ٠ لكنه فوجىء به يقدمها للقراء بحملة دعائية قوية ٠٠ عاد اليكم الكاتب الكبير صادق فؤاد ٠ تحفته الأولى بعد غيبة طويلة ٠ قمة الرمزية المذابة فى الواقعية ٠

وظهرت القصة وتتابعت التعليقات وأشتد حولها الجدل ونشطت لها الأقلام ٠٠ وأتصل به منتج سنمائى ليتفق معه على انتاجها بشرط أن يغير الاسم ليكون « أنا وحبيبتى والسمك » ٠

أشاع كل ذلك الاهتمام حماسا حرك سماء فأقبلت نحوه مشبوبة تواقة ٠٠ تواقة لأيام مجيدةمضت ٠٠ وجهزت له الشرفة وتجهزت ٠٠ الشعر المنسدل والعطر السخي بالأنوثة لتنفذ الى خياشيمه وحواسه ٠٠ وأهتز رداؤها الهفاف بفتنتها ٠٠ اهتز ليهز كوامنه ٠٠ عسى أن يبعث الحب من جديد ٠٠ وينبض لها من جديد ٠

وبحث عن طريقة أخرى ليخسف به ٠٠ الموت بالصمت المطبق وقرر أن يمتنع عنا لكتابة ليمحوه من ذاكرة القراء ويصبح نسيا منسيا ٠ لم يقدم قصة المسابقة وأى قصة غيرها وعزف عن أى نشاط ٠٠ وأنتظر رد الفعل وكان شديدا ٠

أثار احتجابه زوبعة من الأسئلة ٠٠ أين صادق ؟ ٠٠ أين صادق ؟ والأسئلة تتزايد والأجابات تختلق ٠٠ صادق يعانى أزمة عاطفية ٠٠ صادق مريض ٠٠ الأطباء يمنعون زيارته ٠٠ صادق في محنة نفسية ٠٠ صادق فى خلوة لقصة جديدة ٠٠ وكان صمته قويا ألهب شوق القراء وكثر الحاحهم عليه عليه وسؤالهم عنه ٠ ولم يفلح تدبيره ٠

وبحث عن طريقة مغايرة يزيله بها من الوجود ٠٠ وقرر أن يكون ذلك على الملأ ٠٠ وعلى مسمع منهم ٠ ودعاه نادى الشباب لالقاء محاضرة يحدد موضوعها بنفسه ٠٠ وأختار « الموصلات الأمينة بين الكاتب والقارىء »

وذهب وكله عزم وتصميم ٠ وقوبل بالتصفيق واحاطته النظرات وهمسات الشباب المتحمس له ٠٠ صادق ٠٠ صادق فؤاد ٠٠ همسات أحد من سكين فى أحشاءه ، ونصلها يمر بأعصابه يقطعها حزمة حزمة فتختلج عضلاته وأطرافه اختلاجات لا ضابط لها ٠

قدمه رئيس النادى بعبارات فخمة ثم نهض يترنح ويتعثر وكلما اقترب من المنصة التهب الحماس ٠٠ واندفعت فتاة نحوه تريد أن تقبله وتعانقه فترك لها نفسه لتفعل ما تشاء ٠٠ وأفسح له المحتشدون طريقا ليمر بعد أن أفسحوا له مكانا فى عقولهم وقلوبهم ٠

وقف على المنصة ونظر اليهم ٠٠ بحر ٠٠ له أمواج ٠٠ وهدير وخرير ٠٠ وعلى سطحه زبد ٠٠ وأمسك بالميكرفون وساد الصمت ٠٠ الصمت المشوق لحديثه ٠٠ قرأو له ولم يسمعوه قط ٠٠ بل ولم يروه ٠٠ وما كانوا يعرفوه لولا أن قدم لهم ٠

وشخصت اليه الابصار وأتجهت اليه الوجوه وكلها لهفة وكلها براءة ، كلها ثقة ‥ وجفل ثم مد يدا ترتعش الى كوب ماء وتناول جرعة ليزيل أضطرابه والعلقم الذى بفمه ٠

ألقى نظرة على الورقة التى دون بها نقاط الحديث ‥ الكلمات متشابكة والسطور ملتوية على بعضها ولم يستطع أن يقرأها والتفت الى الجالسين ‥ معظمهم من الشباب الذين قرأو له وأعتقدوا فيما كتب ٠

استنفر كل غضبه واستجمع كل مقته لصادق لينطق بالكلمات التى كان أعدها وكررها كثيرا ليقذفه بها أمام هذا الجمع ٠ تحركت الشفاة فى ثقل ملحوظ تكاد أن تعصاه لكنه بدأ « جئت اليوم لأسعد بكم عبر الكلمة المسموعة بعد ‥ بعد ‥ بعد ‥ بعد أن عرفتونى بالكلمة المطبوعة »

وتوقف ليخرج زفرة مهمومة وأستطرد « لكن من الضرورى فى عصرنا الذى تضاعف فيه تأثيرا الكاتب لانتشار الكتاب والمجلة والجريدة ‥ من الضرورى أن تكون المواصلات بين الكاتب والقارىء أمينة ‥ أقصد شفافة وليست حاجبة مانعة ‥ وليس من وسيلة أفضل من المواجهة السافرة ‥ فيتعرف القراء بكاتبهم ويفهم الكاتب قراءه فى وضوح وجلاء » ٠

ودوت عاصفة من التصفيق هدأت عندما أستأنف حديثه حتى لا يضيع غرضه بين الضجيج « وقد يسأل أحدنا ألا يكفى ما يكتبه لتتم من خلاله المعرفة ٠ وفى رأى أن ذلك غير كاف ، فالكاتب يقدم أحسن ما عنـــده ويخفى ما دون ذلك ٠ ينفذ بكتاباته الى عقل القارىء وضميره وينقل اليه قيمه ومفاهيمه ‥ ماذا لو كان نفسه لا يؤمن بها ؟ ماذا لو كانت تجربته مهزوزة ؟ ماذا لو كانت حياته نفسها تناقض ما يدعو له ؟ ماذا لو كان يواجهكم بصورة تنبهرون بها ويخفى الوجه الآخر منه ‥ الوجه القبيح ؟ ‥ ماذا يحدث ؟ ‥ ماذا يحدث لو تبينتهم ورأيتهم الوجهين معا ؟ ستهدرونه ومعه تلك القيم التى نادى بها » ٠

هبوا وقوفا يصرخون ويصفقون ‥ بحر من البشر متلاطم وهائج ‥ ونظر الى الأمواج الصاخبة ‥ ونظر يبحث فيها عن هادىء واحد ‥ عن عاقل واحد لم يلتهب ‥ ومستمع واحد يستطيع أن يخاطبه ‥ فلم ير الا أياديا ملوحة فى هوس محموم مازالوا يصخبون ‥ الجمته حماسهتم ‥ لم يتوقع هذه المشاعر الزاخرة ‥ اهتز وتلجلج ‥ بحث عن الكلام المعد ‥ بحث عن

الورقة التى جهزها للحديث ·· ضاعت ·· ومعها نسى كل شىء ·· أجهد ذاكرته لكن عقله أغلق المصراعين وأخفى كل شىء عنه ·· فارتاع ·

ماذا حدث ·· لسانى يتعثر ·· ضاع الكلام منى ·· تبخر ؟

·· ما كنت أتوقع كل هذاالحب ·· هل أصدمهم فى أحلى أما نيهم ؟ ·· هل أفصح لهم عما يقلقنى وأثقل به كواهلهم ؟ لأجل أن أرتاح وأهدأ !! وما جريرتهم لأرهقهم معى ؟

ما ذنبهم لألقى بأشجانى ومكابدتى عليهم ؟ ·· هل أطعن هذا الحب وهذا الاخلاص ؟

مازالوا يصخبون ·· مازالوا يلوحون ·· ماذا يحدث لو كاشفتهم بالحقيقة ؟ ·· وقد يحقدون على لايقاظهم من حلم سعيد ·· وبعدها أفقد كل ذلك الحب والثقة ·· هل أنا مستعد لخسارتهم ؟ ·

وقد لا يقتنعون بما أروية لهم ؟ قد لايتقبلون الحكاية برمتها ؟ ولا يرون القضية التى أقيمها ؟ أولا يفهمونها بنفس أبعادى ؟ قد لا يستوعبونها بنفس القلق والأرق الذى أعانيه ؟ ·· وقد يخذلونى ويستتفهون الموضوع كله ؟ ويرونه أجوف بلا مضمون ·· وعندئذ لن ألقى منهم الا نظرة رثاء ·

ثم حافظ ·· حافظ وحكاية الاختلاس ·· مضى عليها عشرات السنين لكن مازالت هناك ورقة بخطى ·· وتشهر فى وجهى وأصبح المادة الخلابة فى حديث الصحافة ·· وأسقط من تفكيرهم وتقديرهم ·· أو يتجاهلونى وأصبح نكرة وأفقد كل شىء ··

ما لهم قد صمتوا ·· هل أجازف وأخسرهم وأخسر نفسى معهم ·· رباه انى فى حيرة ·· ها هم يتطلعون الى فى انتظار كلمتى ·· أنى أتردد ·· انى أشك فى كل شىء ·· ماذا أقول ؟ ·· ماذا أفعل ؟ قليلا من النور ·· قليلا من النور لأستقر ··

وانسابت الدموع من عينيه ·· تفصد بعض عذابه ·· وتقبل الجالسين والواقفين ·· تقبل الجدران ·· تقبل النوافذ ·· تقبل السماء ·· تقبل خديه لأن يذهب ·· لأن يرحل ·· حتى لا يفجع ذلك الحب الكبير ·

وتحرك وغادر المنصة والصمت الحزين يظلله ويطفىء حرقة أفكاره ·· واحاطوه باشفاقه واحترموا دموعه وتعاطفوا مع عثرته وغذروه · وتقدم اليه بعضهم ليساندوه ·

ألتفت اليهم وجلب ابتسامة منهكة ولوح بيند واهنة فودعتـه الأكف بعاصفة من التصفيق ·· أرادو أن يشحنوه بها ويؤكدوا ثقتهم به ويدفعوه لأن يستمر ·· ويواصل ·

الفصل الرابع عشر

٤٥

ألقى بجسده على مقعد السيارة ·· رماه تخلصا منه ومما يحتويه ومما يحمله ثم رمقه بنظرة من لا دخل له به ·· وود لا يبتعد وينأى عنه وعن كل ما صادفه بأيامه الهادئة والعاصفة ·

لكن العربة الدؤوب اهتزت هزة عنيفة ألصقته بمكانه وأوجعت عظامه وأطرافه المبعثرة ·

وسعت السيارة تشق طريقها بين الناس والعربات وآلة التنبيه الملحة بنذيرها وصوتها المزعج تجبرهم على افساح ممر لها ·· وقدم الركاب بهمهمة أحاديثهم مع دوى المحرك النشط أصداء رحلته الشاقة ·

وركلت السيارة طريق الهرم وطرحته خلفهـا ثم انعرجت الى الطريق الصحراوى مستهدفة الفيوم ·· رحلة كلف بها وقت أن عزت عليه الحركة ·· وسكن فيه كل شيء ·· حتى تحول الى كتلة تحمل فسيولوجيا الانسان ·· وبدا أمامه كل شيء شاحب مثل تلك الرمال التى ساوى بينها الزمن ·

كانت مهمة فريدة مثل تلك الشـجرة على الجانب الآخر من الطريق · وحيدة عارية من الأغصان والأوراق ومجردة الا من ساق وفروع يابسة ·

وتحسـس بأنامله الخطاب ·· خطاب مهمته ليؤكد به سـبب رحلته وليبرر لنفسه حجة قطع تلك القفار ·

السيد مندوب الحراسة العامة على القصور المصادرة ·
بعد التحية :

ايماء للقرار الوزارى رقم ···· لسنة ···· وبناء على ماجاء بكتاب الادارة العامة للحراسة رقم ···· بتاريخ ···· نرجو تسليم مندوبنا السيد حافظ عبد المعبود الدفعة الأخيرة من مكتبة قصر الأمير السابق عمرو ابراهيم·· الخ ··

مهمة سقيمة واجراءات طويلة ·· حصر ·· وفرز ·· واستلام ·· ونقل ·· وتحميل ·· وتفريغ ·· ثم يحرق معظم الكتب والباقى لم يخرج عن الخيول العربية أصولها وأنسابها ·· بطولة الأورطة الشركسية في الحرب الوهابية ·· الأمجاد العلوية فى المديرية الاستوائية ·· عمل بلا فائدة ·· تافه تفاهة أشـياء كثيرة ننجزها بحرص واتقان ·· ونسـأل عن اهمالها أو اسقاطها ·

وهؤلاء الجالسون القابعون ·· كلهم مثبتون بمقاعدهم المحددة لهم ·· محشورون بداخلها · كل لزم مكانه ·· من جاوز النافذة يبقى جانبها حتى آخر الرحلة ·· ومن تلظى بأشعة الشمس عليه أن يتحملها الى النهاية ·· كل رضى بالحيز المحدد له ·· وأنا ·· أعيش حيزى باثنين يتصارعان ·· حتى صرت رهينهما ·· رهين المحبسـين ·· أريد حيزا أوسـع وأرحب ·· يكفل لى حرية الحركة ·· حرية الفـكر ·· حرية الرؤية · لقـد ضـيقا على الدنيا وضقت بهما ·

هناك خلل ما ؟ أين ؟ ·· لست أدرى ·

وغنى أحدهم بصوت مرهق وكأنه أمضى الرحلة ماشيا ·· ونظر اليه بعض المتثائبين شزرا فقد أقلقهم من سبات عميق ·· ومنهم من يجلب النوم فورا وبأى مكان وفى أى زمان ··

قدرة خارقة ، يستطيعون أن يبطلوا تفكيرهم ويوقفوا عقولهم ·· ليتنى مثلهم ·· وأنى لى ذلك وهذا الطنين الذى برأسى حرمنى النوم ليالى طويلة ·· وأصبحت الاغفاءة ترفا لا أناله ·· وما للعربة تلهث متقطعة الأنفاس ·· هل أنهكها المشوار أم سأمته وملته وحان لهـا أن تتمرد وتبدى رأيها فينا وفى كل شىء ·

ونزل الركاب بين متضجر ومتأفف . وفتح السائق فاه العربة عن آخرها وأخذ يداعب ماكينتها المدللة تتحشرج قليلا وتهمهم قليلا ثم تستريح وتصمت طويلا ومن حولها وقف جميع الركاب .. وكل يسأل .

ـ خير يا أوسطى .. متى نتحرك ؟

ـ ربنا يسهل .

اجابة رددها السابق أكثر من مائة مرة حتى ثار « يا عالم .. يا عالم ارحمونى .. سيبونى دقائق أصلحَ العطل » .

وتناثروا هنا وهناك .. افترش بعضهم الرمال وتوسدوا الكلام .. وجلس الآخرون على شيء مما يمتلكون .. حقيبة .. سلة .. قفص . وشخص الجميع بأبصارهم الى الصحراء الجرداء والرمال الصفراء والأفق البعيد .. ثم الانتظار .. انتظار اصلاح الخلل .

وخللى أنا ؟ .. أين موضعه ؟ .. كيف أدركه ؟ .

كلنا هنا مرتبطون بالعربة .. وأنا جزء من هذا الارتباط .

كلنا هنا طاقة عاطلة .. بلا حول .. بلا فائدة .. ليس لنا الا الانتظار والتململ .. وسماع اجابات السائق المبهمة ورؤية محاولاته البائسة .. وعرقه المنهمر .

هناك خلل ما .. فينا ؟ .. فى السائق ؟ فى العربة .

ومن كان منكم بلا خلل فليرجمها بالحجر .

وخللى ؟ .. هناك قصور ما .. أين هو ؟

رباه .. هل أنا أهذى .. أم بعضى يحطم بعضى .

أم أنا شاك يبحث ويبحث ثم يبحث .

رأسى يكاد ينفجر . قليلا من الضوء لاتبين نفسى وطريقى .

أين الخطل ؟ هل هو فى رؤيتى وبصيرتى ؟ .. أم فى الناس ؟ أم فى الأشياء ؟ أم فى المرئيات ؟

هناك خطأ ما ؟ هل هو كامن فى ركن غائر منى ؟ بداخلى ؟ بذاتى ؟

أم هو كائن فى جوهر الأشياء ؟ فبدت غامضة لا أستطيع أن أتغلغل الى القلب .

حاولت أن أفهم حياتى كى أعيشها •
حاولت أن أفهمها •• زوجتى •• كى أجاريها
حاولت أن أفهم الناس كى أسايرهم •
حاولت أن أفهم الأحداث كى أمضى معها •

لكن كل شيء اختلط على •• فبدا أمامى جميلاوقبيحا •• باطلا وصحيحا مبهجا ومتعسا •• مظلما ومنيرا ••

كيف أرى الأشياء ؟ كما هى قائمة ؟ أم أراها كما أحب وأرغب ؟
وهل تأتينا الصورة من الخارج ؟

واذا كان ما أراه هو نبع من داخلى •• فأين الصواب وأين التمييز ؟ وهل أحكامى سليمة ؟ وكيف تكون سليمة •• وهى نابعة من ذاتى ؟ ذاتى المتغيرة يوما حافظ ويوما آخر صادق ؟

هل طبيعتى عدم الاستقرار وعدم الثبات ؟ كل يوم على حال جديدة ؟ وبالتالى فالأشياء •• والصورة •• الرؤية •• كلها متغيرة •• ما أقبله اليوم أرفضه غدا •• وما أحبه بالأمس أنبذه اليوم •• أليست هذه حالى مع سماء • زميلة فكرى وأنيسة خيالى •• أحببتها بالأمس وأعزف عنها اليوم •• وقد أهيم بها غدا ؟ •• ولم لا ؟ •

لقد ملأت لى الدنيا أزهارا وورودا •• لكنها لم تعط الحب الا لصادق•• الذات الجديدة المتطورة •• لم ترض منى الماضى وعشقت فى المستقبل •• أين هو الماضى ؟ •• الماضى لا وجود له الا فى وعينا الحاضر •• واذا لم نع به فلا وجود له •

ولم لا أكون هاربا من الماضى ؟•• الماضى المضطرب بأوهام الارادة الحرة والشرف •• والأمانة •• أى أمانة وأنا المؤثم بالثمانين جنيها والاتهام المسنون •• أنا مطارد باتهام معلق فوق رأسى •• لم لا يسقط على فينتهى كل شيء واستريح ؟ أو يرفع عنى فلا خوف ولا وجل •

لكنى لم أختلس •• لم أسرق •• أنا برىء من كل ذلك •• أنا المعتدى عليه •• أنا المسروق وأخشى الاتهام •• أخشى الفضائح •• والحقيقة التى تجعل الحياة محتملة •• هل سأظل عاجزا عن النفاذ بها الى النور ليراها الجميع ؟•• ومن يدرينى انى سأجد من يصدقنى ويؤمن بقولى •

وهل سأبقى رهين صادق الى الأبد ؟٠٠ لا أستطيع أن أتحرر منه ؟٠٠ وماذا يعيب صادقا ؟٠٠ هو المستقبل والانطلاق ٠٠ كل شيء يدعونى للتمسك به ٠٠ هى ، وقد فضلتنى به على الجميع كبارا وصغارا ٠٠ ثم الناس ، رفضوا أن أعرض به أو أنال منه ٠ لم يسمحوا لى بفرصة عاقلة أروى لهم واقعه المزيف ٠٠ لم يمنحونى دقيقة واحدة أشرح لهم فيها كيف غرر بهم ٠٠ وأردت أن أصارحهم بكل شيء حتى لو كان فى ذلك اضرار بحافظ ٠

والحقيقة دائما لها ضحايا ، ورضيت أن أكون أحد جنودها المخلصين٠٠ وترددت أمامهم وكنت أضعف من اعلانها ٠٠ فالتزمت السكوت وابتلعنى الصمت ولم أجرؤ على الصراخ ولم أجسر على الصياح ٠

وها أنا عاجز عن مواجهة ماضى ولا أنا راض بحاضرى فلا أزحت النقاب عن حافظ ولا تخلصت من صادق ٠

أين الخلل ؟٠٠ أين الخلل ؟٠٠

هل هو فى رؤيتى وبصيرتى ؟ أرى الأمور تسير عكس تيارى ٠٠ والعائق تلو العائق ٠٠ والطريق المسدود والفكر المردود ٠٠ وأوهام الأمس تتكىء على جروح اليوم ٠٠ ولعل المخاوف تذوب فى صهير الآلام ٠٠ ولعل الشك يتبدد باليقين وأصمد ولا أخور وأفصح وأقول ٠

وماذا أقول ؟

ماذا أقول عن حافظ ؟ بذرت وجوده فى ضميرى وزرعت قضيته فى عقلى حتى صارت رأيا وعقيدة دونها الموت ٠٠ ولماذا ؟٠٠ ولماذا أريد أن أنتشله من القاع ٠٠ القاع الذى اعتصم به منعزلا ومعتكفا ؟ ٠٠ لماذا أريد أن أطفو به على السطح وهو المنزوى الذى تحاشى الناس وسكن من الحياة ركنا قصيا ٠

هل هى دعوة للصدق ؟ هل دعوة لتأصيل نفسى ؟٠٠ هل هى دعوة للسواء من الداخل ؟ فيستوى قلمى وفكرى وعاطفتى ٠٠ وأتسوى مع الوجود ٠٠ مع الحياة ٠

أم أنا أتجسد قيما ابتدعتها فى قصصى ٠٠ النقاء ٠٠ الشجاعة ٠٠ التحدى ٠٠ التصدى ٠٠ الانطلاق ٠٠ التحرر ؟؟

أم أريد أن أطابق الواقع على الخيال لأذيبهما فى مضمون واحد ؟؟
أم أنا أعيش ما أكتب وأرفض ما أعيشه ٠

أين الخلل ؟٠٠

هل هو بداخلى ؟ أم فى الأشياء ؟

هل أنا أتخطى الواقع واتجاوزه الى حلم أكثر اشراقا وضياء ؟ أم استهدف قبسا من ذبالة أتحسس به الطريق ٠

لكن ما لهذه الجدران والحيطان والحواجز ؟ ٠٠ ما لهذه الحفر والنقر ؟ ما لهذه الأحجار والأثقال والهدم والردم ؟٠٠ ما لهذه الهموم والشجون ٠٠ مالها تعترض الطريق ؟ قليلا من النور لأتحرر وأخرج من الظلام ٠

ابتعدت عن كل أنشطة وسكنت منطقة حيادية من الكون وراجعت نفسى لعلى جمودى يكون عناد أحمق ٠٠ ولعلها وقفة باحث عن اليقين ٠٠ عن الجوهر واللب ؟ عن أصل الأشياء ؟ ٠٠

بحثت لعلى أبرأ ٠٠ وأشفى ٠٠ وأتطهر ٠٠ حتى أتطلع الى الحياة ٠٠ الى الناس طلقا بلا أدران ٠٠

هل طالت رحلتى أم ضلت الطريق ؟ ٠٠

أم أضرب فى وادى الندم ودرب الجهل السحيق ؟ ٠

حيرة وقلق ولا شىء يبين ؟ ٠٠

قليلا من النور ٠٠ رباه قليلا من النور ٠

للمؤلف

رواية الحواجز الزجاجية

١٩٧١

الناشر دار النهضة العربية

٣٢ شارع عبد الخالق ثروت

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

وكيل أول

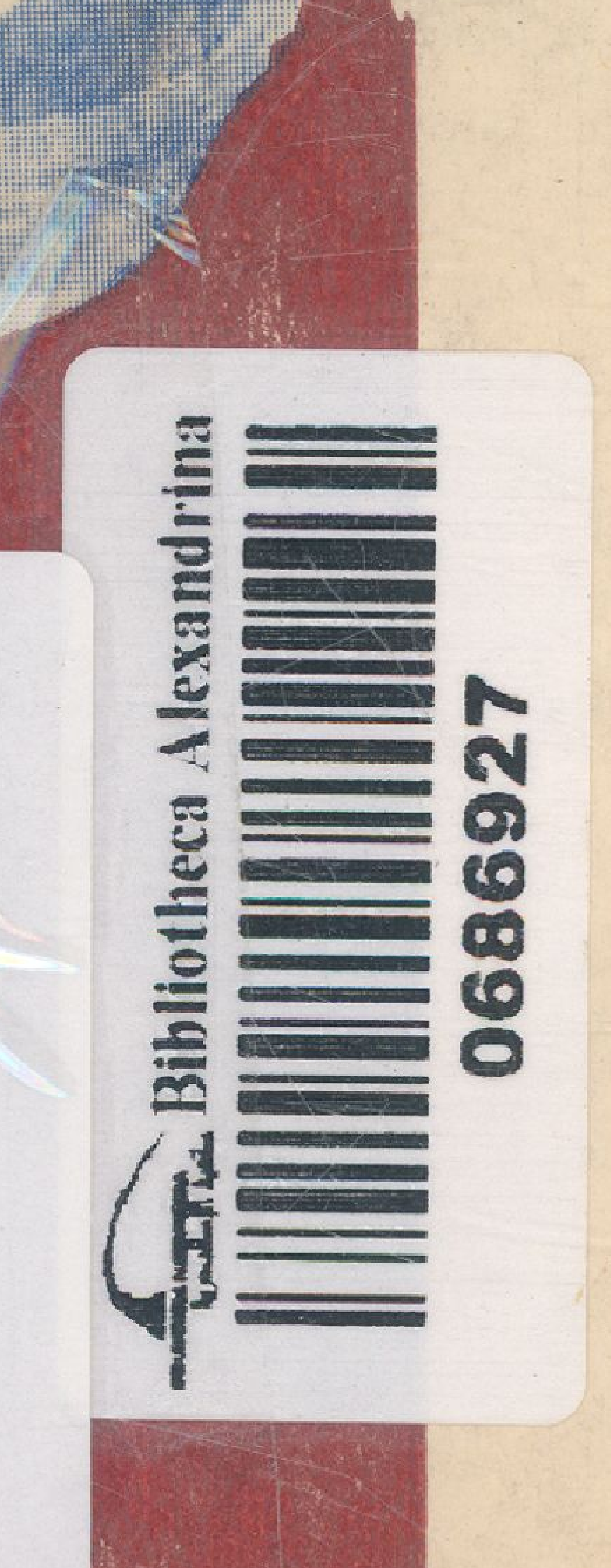
رئيس مجلس الادارة

على سلطان على

رقم الإيداع بدار الكتب ١٩٧١/٦٣٣٩

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

٢٠٠٠-١٩٧١س٦٢٢٦



الثمن ٢٠٠ مليم